أدب أكتوبر

سنوات الحب والموت

مجموعة قصصية

بهى الدين عوض



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٨٨

سنوات الحب والموت

هذه قطرات من فيض حب مصر ..

هذه نماذج من ابداع أبنائنا ضباط وجنود القوات المسلحة الذين عاشوا الحرب واقعا حقيقيا ، ونسجوها كلمات تفيض واقعية وتزخر احساسا ليؤكدوا انالنصر العظيم لا ينتج سوى أدب عظيم ..

كلمة المشير / محمد عبد الحليم أبو غزالة

إهـــــداء

الى الجندى المجهول

أقدام على الطريق

قيظ الصحراء شديد ٠٠ وأنفاس الرمال ساخنة ٠٠ وأقدام الجنود الواهنة التى أثقلها التعب تزحف على الصحراء الشاسعة المترامية وبقايا جماعات من المدنيين المثخنين بالجراح تسير فى يأس قاتل ٠٠ رجال أغرقهم العرق، ونسوة شاحبات منهكات القوى طاعنات العمر أخذن يسحبن أرجلهن الكليلات بصعوبة ، ومنهن اللاتى فى شباب نضر أذبله قفر الصحراء ، وجماعات من الجنود منهم الذى يحمل سلاحه خلف ظهره ، ومنهم من لا يحمل السلاح ، ومنهم حافى القدمين الذى يعانى الجراح ، المرارة تسكن قلوبهم واليأس يطل من عيونهم فى نظرات تائهة شاردة ٠

الكل أخذ يتوافد الى ربوة عالية ، تحفها أشجار النخيل وبقايا أشجار عارية كالحة حيث قليل من الظل وقليل من الأمن ، فالمكان يسترهم من عراء الصحراء التى تبطش بها طائرات العدو ٠

جلست الجماعات الوافدة على الربوة منهم من أسند ظهره على جذوع النخيل ، ومنهم من خلع حذاءه وألقى بنفسه على الرمال ، ومن جلس القرفصاء واضعا رأسه بين فخذيه ، والكل ما بين الحين والحين ينظر من خلال النخيل الى الطريق المنحدر أسفل الربوة ، يجول فيها ببصره فتنهض فى قلبه ومضة الحياة ٠

وبين هذا الجمع المتناثر جندى منهوك القوى، ممزق الثياب ، أخذ يسير ببطء ، قدماه منهكتان ، ووجهه مترب وسترة حلته بها آثار دماء ، أخذ الجندى ينظر بوجوم الى الجماعات المتهالكة التى ماتت نظرة الحياة فى وجوههم ، زاغ ببصره ثم تحرك بتهالك نحو جماعة من الجنود تحيط بجندى جريح ممدد على الرمال ، تقدم نحوهم وجلس بجانب الجندى وأخرج منديله الأصفر وربط به جرحه الغائر ٠

سأله أحد الجنود :

ــ من أى وحدة يا دفعة ؟

ـ من وحدة مدفعية السواحل بالعريش .

ـ متى انسحبتم ؟

ـ بعد أن دمر العدو أسلحتنا .

ـ كيف كان ذلك ؟

ـ بالدبابات والطائرات .

تنهد الجندى ، تساقطت الدموع من عينيه بغزارة وقال :

ـ تصور يا دفعة أن وحدتنا كلها قد دمرت .

ـ كيف تم ذلك ؟

صمت الجندى برهة ، شرد لبه ، غاب بعينيه ثم قال :

ـ هجمت علينا طائرات العدو ، أخذت تضرب موقعنا ضربا مستمرا دون توقف حتى دمر وتحول الى رماد وهشيم ، كل شيء فيه تفحم ، وكنت أثناء القصف فى دشمة بمفردى ، كل مكان حولى انتهى ، جميع الجنود استشهدوا ، السلاح أصبح نارا ودخانا ، خرجت وكان الليل قد هبط ، وأخذت أهيم شاردا فى الصحراء ،

رأيت الجثث التى تفحمت من شدة النار ، وشاهدت البطون المبقورة ، والرقاب المقطوعة . وفى الصباح قابلنى جندى مقطوع الساقين طلب منى ماء .. ولم يكن معى ماء .. نظر الى الجندى بعينين زائغتين يطل منهما فزع رهيب .. وقال :

ـ أريد قليلا من الماء . لا أريد أن أموت ظمآن .

فبكيت فنظر الى الجندى ، ارتعشت شفتاه ، وقال والزبد يسيل من فمه :

ـ أتوسل اليك عندما تعود الى الوطن أن تذهب الى أولادى وتطمئن عليهم ولا تقل لهم انك رأيتنى على هذه الحال .

وما أن سمعت هذا الكلام حتى انهارت قواى ، بكيت بكاء جارفا . فنظر الى الجندى مبتور الساقين من جديد وانفرجت شفتاه وقال فى يأس :

ـ اذهب واتركنى .. لا أمل فى انقاذى .

وفى هذه اللحظة كنت أريد أن أبقى بجانبه أموت معه وألقى مصيرى سهما كان .. ولكن غريزة حب الحياة تغلبت على.. فتركت الجندى وحيدا فى الصحراء وكنت

أشعر وأنا أغادر هذا المكان أننى قد فقدت قطعة من قلبى ·

قص الجندى هذه الحادثة ثم انخرط فى بكاء عميق ·

نظر اليه الجندى الآخر وقال فى أسى :

ـ نحن جميعا رأينا أياما أسود من الليل · وأنت عندما قصصت لى حكايتك تذكرت الأهوال التى مرت بى

ـ أحلك من الذى رأيته يا دفعة ؟؟ !!

ـ كل شخص منا له قصة أغرب من الخيال ·

قالها بصوت ضعيف واهن ثم وضع كفه على عينيه ، وأحنى رأسه الى أسفل ، وغاب فترة عن الكلام، ثم عاد ورفع يديه عن وجهه وبرقت عيناه ، ولاح منهما بريق حاد وقال :

ـ بعد أن هاجمنا العدو بالطائرات حاصرنا بالدبابات قرب المساء وكانت مواقعنا المحصنة محمية وراءالنخيل والكثبان الرملية ، أخذالعدو يضرب موقعنا بدباباته ثلاث ساعات متواصلة ، وكانت الدانة تسقط على الدشمة فتحرقها هى ومن فيها ·· فأخذت أضرب

برشـاشي دون وعي وكانت الطلقـات تخـرج في أى اتجاه • سلاحنا لم يكن متكافئا مع سلاح العدو • رأينا دبابة من دبابات العدو ، تتقـدم الى الأمام ثم وقفت وأمطرتنا بوابل من نيرانها ، فاندفع من بين صفوفنا رقيب وقال في حسم :

ـ يا جنود اثبتوا لليهود أن في موقعنا رجالا أبطالا يحبون الموت فداء لوطنهم •• ثم سار الى الأمام وقال بأعلى صوته : الله أكبر الله أكبر •• وبعد ذلك ألقى بقنبلة داخل برج الدبابة المتقدمة وعلى التـو خرجت مدافع موقعنا وقصفت جنزير عجلتي الدبابة فانفجـر برج الدبابة ، واشتعلت النيران ، ومات من كان فيه ، وفي هذه اللحظة انطلقت صيحات الجنود من تحت بطن الرمال تصيح الله أكبر •• عاشت مصر •• شـعرت أثناء ذلك بالفرحة تنير قلبي • ولكن العدو بعـد أن ضربت دبابته وقتل من فيها صمم عـلى الثأر منـا •• فشدد الحصار من حولنا وخرجت القـذائف من دباباته كالمطر عـلى موقعنا تصـليه نارا وجحيما •• الليـل أصبح نهارا •• النخيل كله احترق •• وظل موقعنـا يدافع ببطـولة الى أن نفـدت ذخـيرته ، ثم انسـحبنا فخـرجت أنا وجنـدى نحتمي وراء الكثبـان الرملية

المنتشرة على الشاطىء ، البحر كان هائجا وتلاطم أمواجه يشبه طبول الموت ، والليل كان فيه وحشة قاتلة والحرائق عن بعد تحرق ظلمة الليل وفى لحظة سمعت طلقة ثم وجدت زميلى يصرخ ويستغيث • نظرت اليه فى فزع فوجدت دماء غزيرة تتدفق من كتفه لقد اخترقت الطلقة جسمه •• ظل الدم ينزف منه ••

شعرت بسخونة فى جسدى •• ووجدت ملابسى قد غرقت فى دمائه •• وغاص الدم الى ملابسى الداخلية وسرى فى جسمى •• فكدت أن أنهار وأنا أسنده على صدرى •• ثم سقط من بين يدى على الرمال •• وفارق الحياة •• فأصابتنى حالة من الهيستريا •• أردت أن أزيل هذا الدم من جسمى فألقيت بنفسى فى ماء البحر •• كادت الأمواج أن تأخذنى الى الداخل فسحبت نفسى بسرعة وخرجت الى الشاطىء •• وأخذ الماء يتصبب من ملابسى •• رائحة غريبة كانت تزكم أنفى وتصيبنى بالغثيان أفزعنى زئير البحر وغربة الليل وزميلى الذى رحل •• كنت كالضال الذى فقد كل أمل له فى الحياة وأمسيت على هذه الحال الى أن التقيت بجماعة من الجنود ووصلنا الى هذا المكان ••

سكت برهة •• ثم عاد يقول :

ـ حكايات وحكايات ٠٠ يا دفعة ٠

هز الجندى الآخر رأسه وقال :

ـ والحكاية الكبيرة غائبة عنا ٠٠

ـ يجب أن نعرفها لأن الحكاية حكايتنا جميعا ٠

وغاب الجنديان فى صمت طويل ٠٠

على بعد شاهدا شيخا ضريرا مسنا يتوكأ على عصاه ٠٠ نظر الجنديان اليه قام أحدهم وأمسكه وأجلسه تحت جذع نخلة ٠٠ تقدم الجندى الثانى وتقرفص بجانبه وسأله :

ـ هل أنت وحيد يا عمنا الشيخ ؟

ـ نعم يابنى ٠٠

ـ من أين ؟

ـ من العريش ٠

ـ كيف حضرت الى هنا ؟

حكاية قاسية يا ولدى ٠٠ ومضى الشيخ يقول بصوت متصدع :

ـ بعد أن هاجم العدو العريش بالدبابات وأحرقها ٠٠ خرجت من منزلى أرتطم هنا وهناك ٠٠ كان كل

واحد يمسك بيـدى مدة ثم يتركنى ٠٠ مرة وحيـدا
وأخرى مع الناس ٠٠ كنت آجرى وأسقط على الأرض
فتركلنى الأقـدام وأسـمع الطلقـات تدوى فى أذنى
وظللت على هذه الحال الى أن أخذنى جندى فى سيارته
وقال : ستذهب معى الى مصر يا عمى الشيخ فلم يعـد
لك هنا مقام وأخذنى فى سـيارته ٠٠ وعنـدما كانت
السيارة تخترق الطريق سمعت طلقة ثم صرخة بعدها
وقفت السيارة ٠٠ فأخذت أتحسس ما بجـانبى فاذا
بالجندى بلا حركة ولمست شيئا ساخنا لزجا يتدفق منه
عرفت أنه دم فأخذت أهز الجندى فلم ينطق ٠٠ قفزت
من السيارة أخذت آتعثر فى طريقى فوق الرمال الساخنة
حتى أخذنى واحد الى هـذا المـكان ٠ وسـكت الشيخ
الضرير وارتجفت كل فرائصـه وهـو يتحسس عصاه
بيديه ويقول بصوت متهدج :

ـ الى أين سنسير يا ولدى ٠٠ ؟

ـ قال الجندى :

نحن سننتظر هنا حتى يأتى الليل وبعد ذلك سنرحل
وطريق الوطن من أسفل هذه الربوة ٠

صمت الشيخ برهة وجعل يعبث بالرمال ويقول :

ـ ربنا يحميك من أى مكروه أنت تذكرنى بولدى الذى مات فى حـرب ٤٨ كان شـهما ولم أنس قوله : اليهود ستحتل فلسطين كلها وسيشردون أهلها دافعوا عن الأرض والبيت والعرض والأبناء الأبرياء • أطفال أرضنا •• أمانة فى أيديكم فيجب ألا تفرطوا فى أى شىء • وكنت مع كثيرين لا نصدق هذا الكلام وحارب ولدى مع الفدائيين وسقط شهيدا •• من كان يصـدق أن كل هذا سيحدث !!

غالبت الشيخ عبراته واكفهر وجهه وقال :

، تصور يا ولدى •• اليهود بعد أن مات ابنى •• حرمونى أيضا من زوجتى وابنتى •• لقد أقاموا فى قريتنا مذبحة مات فيها كثيرون وفر الآخرون وكانت زوجتى وطفلتى مع الهاربين وللآن لم أعثر لهما عـلى أثر ، ثم انتهى الشيخ من حديثه وأسند ظهره الى جذع النخلة وبسط كفيه ومط عنقـه الى الأمام وغاب فى شرود حزين •

وفجأة انتفض جندى من مكانه •• ووقف مصلوب القامة فاتجهت الأنظار الى حيثما ينظر •• ظهرت من خلف النخيـل طفلتان صـغيرتان قام الكل من مكانه وتوجهت اليهما الأبصار حملقت فيهما النظرات •• تقدم

الجندى نحو الطفلتين ·· انحنى أمامهما أمسك بالطفلة الصغرى من يدها ·· وقال ودمعتان تنحدران من فوق وجهه المجهد ؟

ـ من أنتما ؟

نظرت اليه الطفلة الكبيرة ·· الممزقة الثياب المبعثرة الشعر فى خوف أخرس وصرخت الطفلة الصغرى·· فانتصب كل الحاضرين من أماكنهم وأسرعوا الخطى اليهما ، قال لهما الجندى فى حب غامر :

ـ لا تخافا ·· لا تخافا ·

تقدمت نحو الطفلتين امرأة شابة غارقة العينين فى الدموع ·· وقبلت الطفلتين فى حنان أسطورى · ثم أخذت تبكى·· وتبكى· أحاط الجميع بالطفلتين فى دائرة ·· تنهدوا·· حملقت عيونهم واشرأبت رؤوسهم ·· اخترق الدائرة الشيخ الضرير وهو يعانى عاصفة من الانفعال المدمر ·· يداه تهتزان لحيته المخضلة بالدموع ترتعش نظراته الكفيفة الضالة تبحث بوحى من مشاعرها عن الطفلتين · الكل فى حشرجة صوت ·· وتنهد قلب ·· يسأل الطفلتين عن حكايتهما ··

ضمت الطفلة الكبرى أختها الصغرى بيديها النحيلتين وقالت :

ـ هذه أختى سلمى ٠٠ نحن من بلدة بير العبد ٠٠ بلدتنا أحرقها اليهود ٠٠ أبى وأمى وأخى الأكبر ماتوا ٠٠ ثم ضمت أختها الى صدرها ٠٠

فنظرت اليها أختها الصغرى ٠٠ ثم الى الحاضرين وقالت بصوت منخفض منكسر :

ـ أنا جائعة ٠٠ أنا جائعة لم أذق الطعــام منــذ يومين ٠

وفى لمح البصر أخذ الكل يبحث فى ملابسه عن أى شىء ٠٠ تنهد جندى تنهيدة مقتولة من الحياة تقدم نحو الطفلتين وأعطاهما كسرتين من الخبز ٠٠ فأكلتاها بنهم ٠٠ طوقتهما النظرات ٠٠ والطفلتان مازالتا واقفتين ٠٠ وابتسامة الطفولة وسحرها قد انطفأت من وجهيهما المذعورين بالقلق ٠٠ ساد المكان شعور رهيب فأخذالكل يلعق جراحه ٠٠ شق الصفوف الشيخ الضرير وأجلسهما تحت جذع النخلة وجعل يتحسس شعرهما المنثور على وجهيهما ٠٠ فبكت الطفلتان وبكى الشيخ فى صــوت مخنوق ٠٠ وقف الجنديان أمامهما ومن حولهم الجميع

مختنقى الحناجر بالبكاء وفجأة دوى هدير مرعب ·· اخترق أسماع الحاضرين ·· فقد حامت طائرات شرسه ·· ففقد أحد الجنود صوابه وأطلق رشاش مدفعه ·· وفى لحظة أمطرت الطائرات المكان بوابل من قذائفهـا فاستعر المكان كله بالنار واللهيب ·· والبعض هرب جزعا بين الأشجار ·· والبعض الآخر دفن نفسه دفنة الموت فى الرمال وأخيرا رحلت الطائـرات ·· وبقيت على الأرض آثار المذبحة ومن بقى أخذ يتحسس نفسه ولا يصدق أنه مازال حيـا · قام الجنـدى المدفون فى الرمال وراح يبحث بلهفة وجزع عن الطفلتين ·· فلم يجد لهما أثرا ·· ترك الربوة وجرى سريعا ·· وهنالك على الطريق وجد آثار أقدام صغيرة فسار فى اتجاههما وعـلى مرمى البصر وجـد الطفلتين مذبوحتين عـلى الأرض ··

وقف الجندى مقتول القلب مقهـور الارادة عارى النفس ·· حتى لحقته الجموع ووقفوا جميعا فى وجوم وصمت أخرس ·· والشيخ الضرير بينهم يمسك به اثنان ·

ثاب الجندى الـواقف أمام الجثتين الى رشـده ·· وأشار بيد كليلة مجهدة الى زميل له تقدم كثيرون نحوه

.. حفروا حفرة فى الرمال ودفنوا الطفلتين .. غطوا الحفرة بالرمال ثم وقفوا أمامهما ينظـرون اليهما فى وجوم ومن خلفهم كانت شمس الصحراء تغرب فى أصيل دام رهيب .. تمتموا بآيات قرآنية كريمة ثم رحلوا .. جماعات متنـاثرة وبقيت بصمات أقدام الطفلتين على الطريق .

ثم كان الرحيل

لفظ الليل أنفاسه وانشق الأفق مخضبا بالشروق وتموج نسيج النور على مسطحات الرمال المترامية ، فتنهد جندى وقال من أعماقه :

ـ أنظروا يا جنود .. ها هى كثبان الشاطىء .

فنزعت قدمى بصعوبة من بطن الرمال وهرولت مسرعا نحوه وربت على كتفه وقلت والفرحة تكسو وجهى .

ـ نسائم القناة ترد الينا الحياة .

ـ قال الجندى وهو يملأ رئتيه كأنما يستنشق عطرا نفاذا :

ـ انها رائحة الوطن يا رفيقى ٠

حملقت فى وجهه وقلت فى أسى :

ـ أتصدق أن مسيرتنا فى سيناء مداها خمسة عشر يوما ٠

فاخضلت عيناه بالدموع وقال :

ـ مسيرة ، زادها الدم والجوع والظمأ ٠

قلت بصوت متقطع :

ـ صه ٠ لا تذكرنى بحكايات الظلام اننى أحتـرق شوقا لبلادى ٠

أربد وجهه وقال منفعلا :

ـ وهـذه الأرض هى بلادك أيضا أنسـيت ذلك يا أخى ٠٠ ؟

مست كلماته جراحى فقلت متأثرا ٠

ـ كيف أنسى يا رفيقى ٠٠ !! اننى أقصد زوجتى ٠٠ وأولادى وأهلى ذكراهم تضىء قلبى لأننى أرى فيهم الأمل الباقى ٠

فهز رأسه وقال وغصة فى حلقه :

ــ أحزاننا فى سيناء لن تنتهى أبدا ٠

قلت فى عزم وتصميم :

ــ سنغسل عارها بدم المناضلين ٠

فرشق الجندى السماء بنظرات حادة واستطرد يقول:

ــ بقدر ما نجود يكون العطاء ٠

ثم أخذنا نجوس خلال الرمال وعيوننا لا تكف عن التحليق نحو الشاطىء ٠

وفجأة تدافعت الى آذاننا قعقعة الدبابات ٠ فقبض حسان على رشاشه وقال غاضبا :

ــ دبابات اسرائيلية يا رفاق ٠

قلت فى قلق :

ــ يأسروننا ونحن على مشارف الوطن ٠٠

اكفهرت ملامح حسان وقال محتدما :

ــ لقد فقدت صبرى ، أريد أن أغسل العار بيدى٠ لم أعد أحتمل رؤيتهم ٠

همست فى أذنه مهدئا من روعه :

ــ صه يا حسان ٠٠ تجلد بالصبر ٠

واندفع حسان من بيننا ثائرا • وعلى التو برزت ثلاث عربات نصف جنزير وأحاطت بحسان ثم برزت منها الرشاشات مصوبة فوهاتها نحوه وظلت تصلصل بعجلاتها وتدور من حوله حتى انضمت اليها مجمـوعة من دبابات العدو وامتلأت الصحراء بمدرعاته •

وبعد ذلك قفزت مجموعات اسرائيليـة من عـلى مصفحاتهم وحاصرونا بمدافعهم ثم اقتادونا الى الشاطىء وهناك وجدنا عددا كبيرا من الجنود المصريين محـاطين بالأسـلحة الاسرائيليـة • وما آن اقتربنا منهم حتى تقدمت نحونا مجموعة منهم فى عيـونهم شر مسـتطير وأخذونا الواحد اثر الآخر ثم جردونا من سـاعاتنا ونقودنا • فاعترض حسان وحاول منع الاسرائيلى فهوى جندى طويل القامة شرس النظرات بقبضة رشاشه على ظهر حسان • فسدد اليه حسان نظرات نارية وانقض عليه وقبض على عنقه فتدافعت نحوه شـلة من الجنـود الاسرائيليين وخلصوا من يديه الاسرائيلى ثم التفوا من حوله وألقوه آرضا وصوبوا اليه رشـاشاتهم وراحوا يطلقون عليه النار حتى مزقت الطلقات جسده وحطمت رأسـه وأصبح حسـان كتلة من اللحم الممزق المعجون بالدم الأحمر القانى •

فانتابتنى قشعريرة حادة وهممت أن أنزع الخوذة من رأسى وأدق بها أعناق السفاحين • فجذبنى من يدى جندى مصرى وهمس فى أذنى :

ــ صه ، بقدر حروف الكلمات• يكون الرصاص•

دفنت ثأرى فى صــدرى المتلظى بالغضب ووقفت أمام الاسرائيليين بركانا يغلى من الأعماق تقدم نحوى جندى طويل القامة فظ الملامح ونزع خوذتى • ودفعنى بقبضة يده • فانتفضت غاضبا وهممت بأن انقض على الاسرائيلى فتذكرت كلمات الجندى ، ورصاصات حسان فأظلمت الدنيا فى عينى ، وتدافع الفكر الأســود فى رأسى •

ثم اقتادنا الاسرائيليون جماعات الى الشاطىء • وهناك تسلمنا الصليب الأحمر • وعبرنا القناة وما أن وصلت الى الشاطىء حتى خارت قواى ثم سقطت عــلى الرمال فاقدا رشدى •

***

استيقظت ليلا فرأيت مصابيح واهنة وصفوفا من الأسرة البيضاء • فتحسست جســدى فوجدت به آثار تضميد ورائحــة مطهــرات • فقمت جــزعا وألقيت

بالغطاء وندت عنى صرخة عالية • فهرولت الى ممرضة بسامة الثغر تطل من عينيها نظرات ملائكية وجلست بجانبى وافتر ثغرها عن ابتســامة متلألأة وقالت فى هدوء :

— الحمد لله على السلام يا دفعة •

فاستدرت برأسى يمنة ويسرة قلت فى قلق :

— أمصرية أنت •• ؟؟ !

فتفرست فى وجهى وقالت فى دهشة :

— نعم •• انت فى بورسعيد يا دفعة • !!

فانتفضت واقفا وقلت بصوت مدوى :

— بورســعيد •• أنا فى وطنى •• أنا فى قلب بلادى !!

وأخذت أقهقه وأضحك •

فاقتربت الممرضة نحوى ووضعت يدها على رأسى -

فقلت فى ارتياع :

— أجريح أنا •• ؟

سبحت عيناها فى الدموع وقالت :

— لست جريحا • أنت بخير •

ارتفع جئير حاد فهرولت الممرضة نحو مصدره فألقيت بفراشي واندفعت نحو الصراخ فوجدت جنديا ملفوفا فى القطن والشاش ولم تظهر منه سوى عينين مليئتين بالألم وراح الجندى يئن أنات مبرحة .

فتسمرت بنظراتى اليه وقلت :

ــ لا بأس عليك يا دفعة .

نظر الى الجندى . وقال بصوت مرتجف :

ــ مزقتنى الرصاص يا دفعة .

جذبتنى الممرضة من يدى واقتادتنى الى سريرى ثم همست فى أذنى :

ــ الكلام يؤرقه .. دعه للخالق .

وفى الصباح سمعت همهمة بين الجنود الجرحى وهمس فى أذنى جندى يستند على عكازين :

ــ لقد فارق الحياة .. البقية فى حياتك .

ارتجفت أساريرى وتقلص وجهى بالألم وأنا أرى جثة مبسوطة تحت القماش الأبيض .. بين أيدى الممرضين وهم يحملونها الى مثواها الأخيرة .

وبعد أن تماثلت للشفاء حضر الى المستشفى رقيب

أول وأتم اجراءات خروجى ثم أخذنى فى سيارته الى موقع تجميع للجنود العائدين من سيناء ‥ وهنـالك سجل صول الموقع كل بياناتى العسكرية ٠

ورافقت الجنود الى موقعهم الجديد وسـمعت منهم أساطير العـذاب فطافت فى مخيلتى ٠ مسـيرة الأيام السوداء ، وتذكرت طوفان الحوادث وهى تغرق أحلامنا فوق رمال سيناء ٠

تقدم نحوى جندى وقال :

ــ أراك دائما كسيف الوجه حزين العين ‥

قلت وصدى أشباح سيناء تجلد قلبى ٠

ــ الحرب تطاردنى فى كل مكان ٠

ندت عنه زفرة طويلة ثم قال :

ــ انها مأساة دامية ٠

وسكت مليا وعاد يقول وهو مقهور النفس :

ــ اسرائيل ملكت أقدارنا ٠

قلت معترضا :

ــ اسرائيل هزمتنا فقط ٠

قال واليأس يملأ وجهه ٠

ـ وأى أمل تنتظره بعد ذلك ؟

توقدت فى عينى نظرات نارية وقلت :

ـ للآن لم تقتل فينا ارادة البقاء ٠

قال ساخرا :

ـ أفواه مدافعها تمزق أحشاء القناة ٠

قلت فى تصميم :

ـ سيناء دائما مقبرة ٠

ارتجف الجندى وقال فى يأس :

ـ مقبرتنا نحن ٠

قلت منفعلا :

ـ المقبرة لم توار كل ضلوعنا ٠

قال فى حسرة :

ـ أتمنى أن يكون كلامك الحقيقة ٠

لوحت بيدى ناحية القناة وقلت :

ـ أنظر ٠٠ الضفة الغربية مازالت فى أيدينا والمدينة مازالت باقية ٠ ورجالها فوق أرضها يصنعون حياتها ٠

هز الجندى رأسه ساخرا وتركنا وانصرف ٠

وكان الليل يرسى ظلاله على المدينة ولم يبق سوى

وقع أقدام الجنـود الراجلة وهم يطـوفون الشـوارع والسيارات تنهب الطريق ٠

شط بى الخيال ورحت أسبح فى أحلام الطفـولة يوم قامت الثورة ٠ ويوم طـرد الملك وتأميم القنـاة وحرب ٥٦ وسنوات الصمود ٠ وتتابعت أطياف الماضى وأمسياته المشرقات ثم هوت كل هـذه الآمال فى قاع سحيق عندما تذكرت اليوم ومأساته وظلاله فذهبت الى الشرفة ونظرت منها فرأيت القناة متشحة بالسواد وعلى ضفتها الشرقية الاسرائيليون يجترون أحلامهم فبكيت ونحبت وشعرت بنيران الحقد تأكل عظامى ٠

وانبثق الصـباح مرا فى الحلوق ٠ نـوره مازال يحكى المأساة والجنود المصريون يرشقون العلم الاسرائيلى على الضفة الأخرى بنظرات ثائرة متمردة ٠

وتقدمت نحو مجموعة من الجنود تحتدم فى نقاش متفجر بالغضب ٠

قال جندى بعصبية :

ـ اليهود ملكوا الدنيا ٠

قطب جندى آخر جبينه وقال :

ـ كفاك هراء يا دفعة ٠ دع عنك نوازع اليأس ٠

فاتسعت عينا الجندى وتلونت بلون الدماء وقال في عصبية :

– ألم يهزمونا ؟ الم يدفنوا زهرات شبابنا في بوادى سيناء ؟

ثم ازدرد ريقه ومضى يقول :

– كم خسائرنا ؟ كم ضحايانا ؟

قال الجندى الآخر وهو مازال يحتفظ بالهدوء :

– للآن مازالت الروح فى أمتنا تعيش ، ومازال شعبنا يملك الصمود ٠

وظل الحديث بنا يشرق ويغرب حتى ضربت نوبة نوم ٠

★★★

دوى الصفير في فناء الوحدة فهرع الجنود الى مواقعهم واصطفوا صفوفا منتظمة ثم تقدم رقيب أول الوحدة وأخذ يعلن أسماء المرحلين من هذا المكان وتتابعت أسماء الجنود وعندما سمعت اسمى اندفعت مع الجنود الى الخارج وكانت نسمات الليل الندية تنعش وجوهنا وصعدنا الى السيارة وامتلأت السيارات بنا

ثم اندفعت تشق عباب الطريق وكانت المدينة غارقة فى ظلمة الليل وأمواج البحر عن قرب تعانق الشاطىء ووقفت السيارات فى مكان هادىء فتدافع منها الجنود بنشاط وحيوية واصطفوا أمامها وعن قرب تقدم نحونا رجل طويل يمسك بفانوس واصطحبنا الى سور مجدول بالخضرة • ثم أخرج من جيب سترته مفتاحا غليظا وفتح بوابة حديدية على مصراعيها • فدلف الجنود الى الداخل •

فرأيت القبور تملأ جنبات المكان • ولم أصدق أن الموت تيار متتابع الأمواج فالمكان جبانة وتحت قبورها رفاة أجساد طالما رأيناهم من قبل • فأفزعنى وجودى فى هذا المكان وأخذت أجول مع الجنود فى جنباتها • وسمعت مواء قطة • فارتجف جسمى عندما رأيت عينيها تشعان بالنور وقلت لنفسى (هذه قطة أم شبح ترعرع من قلب الظلام فربما تكون روح رفاة جسد شق مقبرته ليبحث له عن رفقة فى هذا الكون الهاجع)•

فلم أحتمل رؤية تلك القبور وقبابها المعروشة بالخضرة فاندفعت الى زميل لى فوجدته ممددا تحت جدار قبر فربت على كتفه وقلت فى دهشة :

ـ أتنام بهذه السرعة فى تلك الظلمة ؟!!

قال دون مبالاة :

ــ ولم لا . . انها أفضل بكثير من ليالينا البارحات

ــ هذه الظلمة تجثم على صدر الانسان .

انتفض من مكانه وقال مندهشا :

ــ ماذا تعنى . . ؟

قلت فى هدوء :

ــ لأن وعى الانسان فيها متفتح للأشياء .

قال ضجرا :

ــ انك تشغلنى بحديث ليس لى حيلة فيه .

سكت مليا ورنا الى وقال متسائلا :

ــ ماذا تريد منى ؟

قلت بنفس الهدوء :

ــ تستيقظ معى .

لوح بيده فى الفضاء وقال والنوم يداعب جفنيه :

ــ النوم فى رأسى .

ــ اذا استيقظت رحل النوم عنك .

عاد يقول بنفس الضيق :

ــ لقد حلقت بخيالى مثلك . ولكننى رأيته خيالا سقيما فاستسلمت للنوم والراحة .

قلت ساخرا :

ـ يالك من انسان سعيد •• تنام بسهولة ويسر رغم تلك الطبيعة الموحشة •

افتر ثغره عن ابتسامة وقال :

ـ الأمر بسيط • غدا سترى هذه الطبيعة الموحشة أمرا عاديا •

قلت وأنا أفكر بكل جوارحى :

ـ ليس ما أعنيه هو تلك القبور•• وهذه الجبانة • والخوف والموت ولكننى أعنى أشياء أخرى أعنى الانسان ومصيره والهدف من هذه الحياة ومسيرتنا فى سيناء ثم امتثالنا هنا أمام تلك القبور •

فوقف رفيقى الجندى أمامى وراح يدور فى قلق ويقول :

ـ حقا انك تشغل مركز التفكير فى رأسى وأخذنا نتبـادل الأحاديث فى هدأة المـكان حتى بزغ الصباح بنوره • فرأينا المكان بجلاء •

كانت المساحة كلها مغطاة بالقبـور ذات أشـكال مختلفة فهناك قبور كبيرة فى شكل المربعات وأخرى فى

شكل المستطيلات ومنها الكبير والصغيرة والقبور المنفردة والجماعية وتتناثر فى جنباتها شجيرات الورد الحمراء والبيضاء وشجيرات الياسمين تغزل خضرتها على مساحات القبور · فبدت للعين رائعة الشكل توحى باحساس غريب يدفع عقل الانسان للتأمل والتفكير الطويل ·

وفيما أنا أجول فى رحابها سمعت صرير باب يفتح ورأيت رجلا يتقدم نحونا بخطوات وئيدة ثم حيانا الرجل وابتسم وقال وآيات الوقار تكسو وجهه المشرق :

ـ أهلا بالجنود ·

قلت ونظراتى مسمرة فى وجهه :

ـ أهلا بعمنا الشيخ ·

تفرس الرجل فى وجوهنا وقال بعطف أبوى :

ـ نمتم فى العراء يا أولادى ·

قلت بصوت منخفض ·

ـ هذا لا يهم · لقد تعودنا على ذلك ·

قال بهدوء :

ـ يبدو أن هذا المكان يليق بكم ·

فقلت فى دهشة :

ـ يليق بنا ٠٠ !!

فهز الرجل رأسه مبتسما ومضى يقول :

ـ نعم مقابر الشهداء تليق لاستقبال الجنود العائدين من ساحة القتال :

هدأت الدهشة التى ملأت وجهى فتساءلت :

ـ أى شهداء تعنى يا عمى الشيخ ؟؟ ٠

سكت الرجل مليا ولمعت عيناه بالتفكير ثم قال :

ـ نعم : مقابر للشهداء ٠٠ وكل من فيها شهداء حرب ٥٦ ٠

شط به الخيال وانحدرت على خديه دمعتان وقال :

ـ وأيضا بها ٠٠ ابنى الشهيد ٠

وحاول أن يخفى انفعالاته ثم استجمع زمامه وعاد يقول بنفس الهدوء ٠ وهو يشير الى قبر كبير مغطى بالخضرة ٠

ـ هذه مقبرة لأربعين شهيدا معظمهم من العسكريين ذوى الرتب الكبيرة وأما هذه المقبرة فتضم مجموعة من

شباب المقاومة الشعبية للمدينة الذين قاموا بعمليات فدائية ضد القوات الانجليزية والفرنسية ٠

وبلع ريقه وسكت هنيهة ثم عاد يقـول وعينـاه تزهوان بالنور :

ـ أما هذه المقبرة فهى مقبرة ابنى ٠ لقد حفرتها بنفسى ودفنته بيدى ٠ كان ولدى الوحيد شجاعا جريئا اشترك مع شباب المقاومة وحقق بطولات رائعة ٠ نال على أثرها حب المدينة كلها ٠

كان وجه الرجل وهو يحكى كل هذا يشرق بالنور وكانت كلماته رخيمة عذبة كنت أشعر بها وتهتز لها كل سرائرى ٠ وكانت حكاياته تسرى فى كل جسدى وتمس شغاف قلبى وتفجر التفكير فى عقلى كانت كل جوارحى مجندة لسماع هذا الرجل ٠

ولم يكف الشيخ ابراهيم عن سرد حـكاياته كان يجمعنا أثناء الراحة ويقص لنا الكثير عن حياته وعن حياة المدينة وعن حرب ٤٨ التى اشترك فيها وعن ٥٦ والشباب ورفقة السلاح ٠ فنفذت شخصيته الى قلوبنا جميعـا وسـحرتنا أحاديثـه وأضاءت قلوبنـا بالأمل

وغمرتنا بالفرحة فأصبحنا ننشـد لقاءه ٠٠ ونترقب أحاديثه بشغف كبير ٠

★★★

صدرت الأوامر بالسماح للجنود بتصريحات خروج داخل المدينة ففرحنا لذلك كثيرا فخرجت مع جماعة من الجنود الى مدينة بورسعيد وأخذنا نجوب رحابها وندرع جنباتها واستقبلنا الأهالى استقبالا طيبا ٠ اذا جلسنا على المقاهى تسابق المدنيون فى دفع ثمن المشروبات واذا اشترينا شيئا من المتاجر رفض البـائعون ثمنـه وكانتالنسوة ينثرن علينا بنظرات ملؤها العطف ورأينا جماعات الأطفال وهم يسيرون صفوفا منتظمة ويهتفون ملء أفواههم بحياة مصر فى جنبات المدينـة ويكتبون على جدر الأسـوار والمسـاكن وفوق مسطحات الطرق أهازيج النضال ٠ ورجال المقاومة الشـعبية يطوفون الشوارع فى ثبات وعزم ٠

كان الكل فى المدينة يتحدث عن الصمود وذكريات حرب ٥٦ فانسابت حياة المدينة فى قلوبنا أغنية عذبة تفيض حروفها سحرا وجمالا ثم عدنا الى مواقعنا بقلوب تفيض بشرا وسعادة ٠



ذات ليلة مكللة بالنـور صحونا عـلى صـوت نوبة قيام فاندفعنا الى الساحة نشكل صفوفا متراصة ووقف القائد • أمامنا بقامته المديدة يقول :

ـ لقد وقع عليكم الاختيار لتنضموا الى القـوات الخاصة • وسيسبق ذلك تدريبات شاقة • ثم سكت مليا ومضى يقول بنفس الثبات والتصميم :

ـ والآن سنغادر هذا الموقع والجمع سيكون عـلى الشاطىء كل جماعة خلف سيارة •

واندفع الجنود الى خيامهم مسرعين وراحوا يحزمون معداتهم •

وانطلقت الى خيمتى وحملت مهماتى خلف ظهرى وقبضت على رشاشى ومضيت كالسهم الى الشاطىء وكان الفجـر يطـل من وراء الأفق ويغسـل ظلمة الليـل هدير البحر يفجر السـكون • فبهرتنى روعة الطبيعة وأثلجت صدرى نسمات الأفق المضيئة فانسـابت فى مخيلتى اشراقات ملامح عمى ابراهيم وهو يحكى لنـا حكايات نضاله •

وصـورة مدينـة القمر وصـبيتها الصغار وهم

يخطون بالطباشير عــلى الطــريق وفوق جدر الأســوار حروف الكلمات الملتهبة بالحماس ·

ثم أيقظنى من شطحات خيالى نداء القــائد وهــو يدعونا للصعود الى السيارات فصعدنا وجلسنا صفين منتظمين وانطلقت السيارة تشق الطريق فرنوت أمامى وبهرتنى نظرات مضيئة تطل من تحت خوذات صــلبة لامعة ·

صورة فى جيب مقاتل

ظلت المعارك محتدمة الأوار الى أن شارفت الذخيرة على النفاد ·· فعزز العدو قواته بعدد كبير من الدبابات والمدرعات ·· وأحكم الحصار حول الموقع الصغير الذى استبسل فى الدفاع عن نفسه ·· بشجاعة وفداء فاقترب القائد المصرى من الرقيب فرحات ··

وهمس فى أذنه :

ـ لقد ضيق العدو الخناق من حولنا · ·ونريد فتح ثغرة فى حصاره ·

أجاب الرقيب فرحات على الفور :

ـ سأفتح الثغرة بنفسى يافندم ٠

ـ كيف ٠٠ ؟؟

أشار الرقيب فرحات بأصبعه ناحية ميمنة الموقع وقال بثقة :

ـ هـذا ٠٠ أضعف جانب للعـدو ٠٠ وفى نفس الوقت هو المنفذ الوحيد لقواتنا ٠

تلألأت أسارير القائد بالفرحة وهو يطوق العـدو بنظراته ٠ ثم قال وهو يرمق الرقيب بنظرة اعجاب :

ـ أعلم ذلك يا فرحات ٠٠ ولكن كيف يتم ذلك ٠؟

أخذ الرقيب فرحات يضرب بقبضة يده على مدفعه ويقول فى حماس :

ـ سأدمر بمدفعى هذا ٠٠ دبابات العدو ٠

حملق القـائد فى وجه الرقيب فرحات ٠٠ فرآه يسطع بنور غريب فقال :

ـ جندى شجاع ٠٠ يا فرحات ٠

وسكت هنيهة ٠٠ ثم مضى يقول :

ـ ولكننى أشفق عليك من كثرة التضحيات التى بذلتها ٠٠ والبطولات التى حققتها ٠

ضرب الرقيب فرحات بيده على صدره وقال منفعلا :

ـ كل التضحيات تهون من أجل مصر ٠

صافح القائد الرقيب فرحات وضغط على يده بحرارة وقال :

نفذ مهامك يا فرحات على بركة الله ٠

حمل الرقيب فرحات مدفعه المضاد للدبابات ٠٠ وشق طريقه الى موقع العدو بخفة وحذر ٠٠ وما أن اقترب منه حتى انطلق الى كثيب رملى ٠ فاختفى وراء قمته ٠٠ فرأى دبابات العدو عن قرب يلفها الليل بأرديته السوداء ٠٠ فامتلأ صدره بشذى طيب ٠٠ واعتلت وجهه ابتسامة مشرقة وراح يلتفت يمنة ٠ ويسرة الى أن فوجىء بطلقات نارية تمرق من فوق رأسه فانبسط بجسمه فوق الرمال ٠٠ وما أن توقف القصف حتى مد يده الى صدره وطفق يتحسس ما فى جيبه ثم أخرج مصحفا ٠٠ وصورة ملفوفة فى منديل ٠٠ وفتح المنديل وأمسك بالصورة ٠٠ فبدت له فى ظلمة الليل مضيئة متألقة فغمرته مشاعر حارة ٠٠ شملت كل جوارحه ٠٠ فترقرقت الدموع من عينيه ٠ فقبل الصورة ولفها فى المنديل ووضعها فى داخل

سترته • مست قلبه رجفة قوية •• فنهض من مكانه واندفع الى الأمام بارادة صلبة •• وما أن اقترب من دبابات العدو • حتى توارى خلف كثيب رملى آخر ••

وأنشأ يدقق النظر فى هدف مرماه •

فرأى دبابة ملنوفة بجسمها الحديدى •• تسد جانبا من ميمنة العدو •

فصوب اليها مدفعه •• وانهال عليها بداناته •

اهتز جسم الدبابة •• وترنح برجها •• ثم قذف جنودها بأنفسهم على الرمال •• فاستقبلتهم نيران الرقيب فرحات فسقطوا صرعى حول دباباتهم • وفجأة •• والرقيب فرحات فى نشوة الانتصار •• شعر بقوس نارى يخترق •• كتفه فأمسك بيده جرحه وأخذ يزحف والدماء تنزف من جرحه بغزارة وتغرق ملابسه وتبلل ذرات من الرمال من تحته وظل الرقيب فرحات يواصل مسيرته •• تحت سيل النيران المنهمرة من حوله •• حتى اقترب من الدبابة الأخرى فقذف بقنبلة يدوية فى برجها •• فارتفعت منها ألسنة النار •• وشرائط من الدخان الأسود ازداد جرح الرقيب فرحات اتساعا •• وسالت منه الدماء بغزارة •• وبمشقة

كبيرة · أخرج الرقيب فرحات مسدسه المضىء الطلقات ·· وأفرغ منه ثلاث طلقات ·· اشارة لجنـود موقعـه بنجاح المهمة التى كلف بها ·

ثم مد الرقيب فرحات يده الى سترته وأخرج الصورة ·· فتراءى له ابنه وليد مضيئا مشرقا وكأن ضحكاته تملأ الساحة كلها من حوله ·

فضم الصورة الى صدره ·· بيد مرتجفة ··

وتألقت على وجهه ابتسامة عريضة ثم أسلم الروح فى لحظة حب أبدى ·

وغنت البنادق أنشودة القمر

انتظمت صفوف الجنود كأسوار الفولاذ ·· ملامحهم كصقور جارحة نظراتهم متوقدة متحفزة ·· أصابعهم على أزندة السلاح · ثم لفظت الأرض من باطنها جنودا ·· هلعة ·· تناثروا على وجه الرمال بوجوه فزعة ·· توسطهم جندى أشعث الشعر ممزق الثياب متهاوى الساقين راح يلفظ أنفاسه بصعوبة ويقول بعربية غير واضحة :

ـ لا تقتلونا ·· نحن نستسلم ·· نحن نستسلم ·
ترنحت جماعات اليهود بين قامات الجنود المصرية
قال القائد المصرى فى عبرية واضحة :

ـ فليلق كل منكم بسلاحه على الأرض ٠٠ وليتقدم الينا قائدكم ٠

ألقى الاسرائيليون بسـلاحهم ولم يتقـدم كبيرهم تفرسهم الضابط المصرى بنظرات صارمة ثم قال بصوت حاد النبرات :

ـ من قائدكم ٠٠ !!

تقلصت وجوه الاسرائيليين خوفا ولاذوا بالصمت ٠

رشقهم القائد المصرى بنظرات نارية ٠٠ ثم أصدر أوامره الى العريف أسـامة باقتيادهم الى مقر رئاسـة القيادة ٠

اندفع نحوهم أسامة على رأس جماعته ٠٠ وشق صفوفهم بجسارة ٠٠ وجمعهم صفين ارتسـمت عـلى الوجوه الاسرائيلية قسـمات متنـافرة ٠٠ لا تجانس بينهم فيهم الأشـقر والأسـمر ٠٠ وفيهم ذو الشـعر المسترسل والمجعد ٠٠ وجوههم تحـكى حـكايات ٠٠ متباعدة تألق وجدان أسـامة ٠٠ توردت الفرحة عـلى وجنتيه لمعت فى رأسه أفكار متـوهجة ٠٠ تدفق الدم حارا فى شرايينه فاجأته أنة صادرة من اسرائيلى أسمر

الوجه ·· زائغ العينين ·· جاف الشفتين ·· يقـول بصوت متهدج :

ـ قليلا من الماء ··

أخرج أسامة زمزميتـه ·· وأعطاها للاسرائيلى فقبض عليها بيدين مرتجفتين وقبل أن تلمس شـفتاه الماء ·· انقض عليه اسرائيلى آخر ونزعها منـه ·· وأفرغها فى جوفه ·· لمعت عيناه غضبا وأفرزت شفتاه الزبد ثم هجم عـلى زميله ولطمه لطمـة قوية ألقتـه أرضا ·

نهض المضروب وحاول أن يلتحم بالضـارب ·· فأسرع نحوهما أسـامة وخلصهما من العـراك ·· ثم اقتادهما الى قيادة الموقع ·

كانت المعارك مازالت مشتعلة الأوار ··

وهدير المدافع يخترق أحشاء الفضاء ·· وأزيز الطائرات يزمجر فى السماء ويصب لهيب الموت عـلى المواقع الاسرائيلية ·· وجماعات الجنود المصرية تخترق الحشود الاسرائيلية المدججة بالسلاح فى شجاعة وثبات· ويتسابقون الى المـوت فى أنشـودة رائعة الأداء ·· وتحت أتون نار المعارك وصل أسامة الى قيادة الموقع

ومعه مجموعات الأسرى ٠ وهناك سجلت أسماؤهم وأجريت لهم الترتيبات اللازمة لرحيلهم ٠٠ ثم أقلتهم سيارة ٠ وانطلقت بهم ٠

ظل أسامة طوال الطريق يتأمل وجوههم المكفهرة ٠ المتنافرة ٠

تدافع الى أذنيه حديث هامس بالعبرية بين أسيرين ٠

قال اسرائيلى أبيض الوجه أزرق العينين لاسرائيلى آخر :

ـ اننى ألعن اليوم الذى جئت فيه من بلادى فرنسا ٠٠ كنت أعيش هناك بين أسرتى فى سعادة غامرة وحياة رغدة ٠

نظر اليه الآخر وقال بوجه عابث :

ـ ولم جئت ٠٠ ؟؟

أجاب :

ـ قمت أنا ومجموعة من أصدقائى اليهود ٠٠ برحلة سياحية الى اسرائيل ٠٠ وكنا وقتها نتشوق الى رؤية اسرائيل ٠٠ هذا الحلم الذى تحقق وقابلتنا السلطات بترحاب كبير ودعتنا الى الهجرة اليها فوافقنا ٠

ـ هز الجندى الآخر رأسه وقال فى اكتئاب :

ـ أما أنا فقد حضرت من كندا منـذ عشر سنوات مـع والدى ٠٠ ورفضت خطيبتى الحضـور معى ٠٠ فعشت أعانى فراقى لها ٠٠ ومع الأيام وجدت نفسى مشدودا الى هذه الأرض الجديدة فتزوجت باسرائيلية جندت معى ٠٠ وكنا نقرأ معا كتابات مفكرى اسرائيل عن الوطن الجديد فيختلط فكرى القديم بفكرى الجديد٠

فأعيش مضطرب الفـكر مشـتت الأهـداف ولاذ بالصمت هنيهة ثم عاد يقول بتأثر :

ـ أما الشيء الذى لم أنسه هـو ذكريات طفولتى فى موطنى الأول وحنينى اليه الذى لا ينقطع ٠

ـ رمقه الفرنسى بنظرة ثاقبة وقال :

ـ أما أنا فسوف أطلب العودة الى فرنسـا عنـد عودتى الى اسرائيل ٠

ـ قال الكندى فى دهشة :

ـ أتعود هناك ٠٠ ؟؟ ودولتك ٠٠ ورسالتك ٠٠ وأحلامك ٠

رد الفرنسى بدون اكتراث :

ـ دولتى ٠٠ ورسالتى !! لقد قالوا الكثير عن قوة اسرائيل وبأسها ولكن هزيمتنا فى أكتوبر كذبت كل ذلك ٠

قال الكندى منفعلا :

ـ صه ٠٠ لا تقل هذا الكلام ٠٠ أفكارك الغريبة تثيرنى ٠

مط اسرائيلى شاحب الوجه عنقه وقال فى يأس :

ـ وما الغرابة فى ذلك ٠٠ ؟؟

انه يقول الحقيقة وأنا أشاركه الرأى فى ذلك ٠ فلقد حضرت من بلاد الحبشة وكنت أحصى الأيام التى سأهبط فيها أرض الميعاد ٠٠ وبعد استيطانى لاحقتنى تفرقة قذرة بين اليهود الشرقيين ٠٠ واليهود الغربيين ٠٠ وقائد موقعنا الذى استسلم كان يفضل دائما اليهود الغربيين ٠ وكثيرا ما كنت أتمرد عليه بسبب هـذه التفرقة اللعينة صوب يهودى أكبر عمرا نظرات حادة الى اليهودى الأسمر وقال بعصبية :

ـ صه أيها اليهودى الشرقى القذر ٠

اكفهـر وجه الاسرائيلى الأفريقى وقال ووجهـه يتقلص بالغضب :

ـ أنا لا أقــول هــراء ·· بل أقول الحقيقــة قال الفرنسى وهو يوجه حديثه الى اليهودى المتقدم فى العمر :

ـ قلتم لنا أن العدو جبان يهاب الحرب ولا يعرفها ·· ثم فوجئنا بمقاتلين أشداء أقوياء يعرفون الحرب بكل وسائلها الحديثة ·

ارتفع صوت اسرائيلى يقول بصوت كظيم :

أنكم جميعا مثبطون للهمم ·

لا تتكلموا ·· لا تتكلموا ·

ثم أمسك الاسرائيليون عن الكلام وسادهم صمت كئيب ·

حملق أسامة فى الوجوه الاسرائيلية التى تعربد فيها ملامح متنافرة ·· متباعدة فسرح بخياله ·· تذكر سنوات دراسته الجامعية ودراسته فى قسم اللغة العبرية واقباله عليها ليتعرف عــلى كل أسرارها ·· وحبــه لزميلة دراســته الهيفــاء القــد الوردية الخــدين ·· القرمزية الشفتين الليلية الشعر ·· وروحها العــذبة الرقيقة التى توحى بدفء مصر ·

فقال لنفسه منتشيا « سميرة ·· ستعطيك الكثير ·· ستمنحك الحب والدفء ·· والحياة والسعادة » ·

وانبسطت على وجهه ابتسامة مشرقة عريضة ٠

أخذت السيارة تطوى عباب الطريق ٠٠ فى صمت ومعها أخذت تتمايل رؤوس الاسرائيليين فى انكسار كبير ٠

وبعد طول معاناة ٠ عاد الأسرى الاسرائيليون الى الحديث ٠٠ من جديد ٠

قال الكندى :

ـ الجنود المصريون يزرعون الأرض بالسلاح ٠

وأضاف اليهودى الأسمر ٠

ـ شجاعتهم فاقت كل تصور ٠٠

واسترسل ثالث :

رأيتهم يقبلون على الموت بجسارة ٠

ـ هز الكندى رأسه وقال :

ـ لقد سألت نفسى كثيرا عن سبب ذلك ولكنى لم أجد أية اجابة على سؤالى انفجر اليهودى المتقدم فى العمر قائلا :

ـ كفاكم هراء ٠٠ يا لكم من جنود جبناء أوغاد ٠

رشقهم أسامة بنظرة ثاقبة وقال :

بعبرية واضحة :

ـ ناقشوا أموركم فى هدوء ٠٠ ولا داعى للغضب ٠

لاحت الدهشة على الوجوه الاسرائيلية

ـ فتساءل الكندى بصوت منكسر :

ـ أتتكلم العبرية ٠٠ ؟؟

قال أسامة فى كبرياء :

ـ وأعرف أيضا الكثير عن شئونكم ٠

قال اليهودى الأسمر :

ـ سنفاجىء بالكثير ٠٠ والكثير ٠

سرت همهمة بين الجنـود الاسرائيليين ٠٠ زاغت عيونهم فى تأملات شاردة تائهة ٠

وقفت السيارة أمام معسكر تجميع الأسرى ونزل أسامة من سـيارته يقتـاد الاسرائيليين وبعد أن أتم اجراءات تسليمهم الى سلطات المعسـكر ٠ قفل عائدا بسيارته الى موقعه هبت عليه نسمات ندية ٠٠ احمـر وجه الأفق بالغروب ٠٠ وعلى مرمى البصر تراءت له بيوت قريبة مصرية ٠٠ ملفحة بخضرة النخيل ومزدانة بمئذنة بيضاء ٠

فتبرعمت فى رأسه صورة قريته العذراء الرابضة على ضفاف النيل ٠٠ تذكر تلالها الموشاة بنقوش فرعونية قديمة ٠٠ ومسجدها وضريح شيخها الصوفى الجليل الذى حارب الأعداء ٠٠ وقت المحن والخطوب ٠ سرت فى كيانه مشاعر غضه تموج بدفء حار ٠٠ عندما استرجع أطياف جدته العجوز وهى تجمع أطفال قريته فى ليالى الصيف القمرية وتقص عليهم حكايات خضراء ٠٠ عن قريتهم العذراء ٠

وجه الشهيد

ــ استشهد كل من فى الموقع ٠٠

ــ ولم يبق الا أنا وأنت ٠

ــ والعمل ٠٠ ؟؟

ــ نبحث عن طريق للخروج من المأزق ٠

ــ أتعنى الهروب ٠٠ ؟؟

ــ ليس بهذا المعنى الدقيق ٠

ــ بل هو المعنى الدقيق يا جلال ٠

أطبق الظلام ، خرج ياسر من دشمته وتطلع الى الصحراء المترامية ، فلمح أنوارا تعلو وتخفت ٠ فدخل الى دشمته وقال :

ـ العدو مازال يرصد حركاتنا يا جلال •

ـ ماذا بقى لنا حتى يرصد حركاتنا •• ؟!

ـ يبقى تأمين ظهور وحدتنا الأمامية •

ـ أنستطيع ذلك •• ؟

ـ بقدر الامكان •

سكت جلال هنيهة وفكر « ماذا يقول هذا الأحمق •• الدين لا يأمرنا أن نلقى بأنفسنا الى التهلكة •• العدو تمكن منا •• فعلينا أن ننسحب •• ولا نقوم بعمليات عسكرية انتحارية •• ولماذا أنا بالذات ••؟! حياتى غالية فأنا أعيش فى سعة من العيش ولا يجب أن أنتحر هذا الانتحار » •

ـ ماذا قلت يا جلال •• ؟؟

ـ لا شىء •

ـ ليس هذا وقت الجبن يا رجل •

ـ لست جبانا ولكننى واقعى •• أرى الخطأ والصواب بعين فاحصة •

قاطعه ياسر موضحا :

ـ اذا تركنا وحدتنا الأمامية فسيتمكن منها العدو ويكسب بذلك أرضا جديدة ··

ـ والعمل ·· ؟؟

ـ نناوش العـدو حتى تفطن قواتنـا الى وجوده فتأخذ حذرها ·

ـ أتعنى عملية انتحارية ·· ؟!!

ـ أجل ·

رد جلال على التو :

ـ لا أوافق على ذلك ·

قال ياسر فى غضب :

ـ يالك من جبان متخاذل ·

وتركه ياسر وحمل مدفعه ، وعددا من القنـابل اليدوية ومضى الى داخل الصحراء · وجلس جلال يرنو الى الظلام الذى يزداد حلكة ويحدق فى السماء الموشاة بمصابيح كونية رائعة ·

وبعد مدة سـمع دويا من الطلقـات ، ثم صرخة مشبعة بالألم ، فانطلق الى دشمته ، والتصق بالجـدار حتى يحجب نفسه عن كشافات العدو ·

قضى جلال بعض الوقت فى دشمته فأخذته رهبـة الموقف ٠٠ تذكر كل من كان معه ٠٠ استرجع صورهم جميعا ٠٠ حامت فى مخيلته أطياف الذين رحلوا ٠٠ تذكرهم عندما كانوا عن يمينه وشماله شـبابا وفتوة ٠٠ وعيونا تلمع بالأمل ٠٠ رؤوسا تشرئب بنشـوة الثأر ٠ وترامت فى عينيه مواقع العدو وهى تتهاوى ٠٠ وقائد موقعه وهو يقف مشدودالصدر ويقول لجنوده فى قوة :

ـ هيا نغسل أحزاننا بالموت الجميل ٠

ويتذكر كلمات أمه وهى تقـول : « بالـرغم من طيشك ونزواتك الا أنك تحمـل يا جـلال قلبا نقيا صادقا » ٠

ويجتر قول أبيـه : « يا ليتك تريح قلبى بعمـل صادق كريم يا جلال » ٠

يندفع جلال من الموقع ٠٠ فتستقبله عيون السماء وهى أكثر ضياء ٠٠ ويرى فى كل منها وجه شـهيد من رفاقه ٠ فينطلق الى أعماق الصحراء ٠٠ وتسرى فى صدره نسمات ندية مشبعة بأريج طيب ٠ فيشد مدفعه ويتحسس قنابله ٠٠ وأصابع الديناميت ٠٠ الطريق

ينبسط أمامه رحابة ·· وعلى مرمى عينيــه يشــاهد ياسرا ممددا على ظهر الصحراء بعــد أن لقى ربه ·· وعلى وجهه ابتســامة حلــوة عذبة · فتمس أوصاله الرجفة ويسوده شعور مفعم بالثأر ·· يدفن رفيقه ·· ويمضى الى الداخــل وقد أصــبح أشد تصميما وأكثر جسارة ·· ويقترب من موقع العدو ·· فيزدهى فى مخيلته الأمل ·

ينظم جلال أفكاره ، ويلملم شمله ·· تلمع عيناه وهو يرى الموقع قد ازداد قربا · فيتسلل اليه فى خفة مهارة وحذر ·· ويغرز أصابع الديناميت فى أنحائه ثم يقتحم المعسكر بقنابله اليــدوية ورشــاشه يضرب بالرشاش ويقذف بالقنابل بجسارة وشجاعة وتنفجر أصابع الديناميت فيصير المعسكر نارا ودمارا ·

ويخرج كل من فى معسكر العــدو ·· ويضربون ضربات طائشة حتى يلمحه أحد الجنود · فيصوب اليه رشاشه ·· وتخترق الرصاصات جسم جلال فيقفز الى حائط والدم ينزف منه بغزارة ويتطلع الى موقع العدو وقد صار جحيما من الحمم ·

ثم يسقط جلال وعلى وجهه ابتسامة حلوة عــذبة تصافح وجه رفيقه ياسر ·

أغنيات الدم

« القمــر هــلال فى جبين الأفق ٠٠ وأنت مازلت كالبدر يا حبيبة القلب ٠٠ كان همسك الدافىء يبعث كل أحلامى ٠٠ يسرد فى نفسى مسيرة عمرى ٠٠ وأبوك الشيخ كان يزور أبى كل ليل ندى القســمات ٠ وأنا أنشد لقياك عند مطلع كل ليل هامس بعيد الهجر ٠٠ فتكون الصحبة ٠٠ وبساط الأرض وعبق ريح الحقل ٠٠ ونحلم بوشائج عرس ٠٠ ونحن مازلنــا فى عمر الورد ٠ والناس فى قريتنا مقاطع حب ٠٠ يتزاورون ويتصافحون ويحلمون ٠٠ ويقتلون فى النفس كل شر وغدر ٠

تلك أيام مازالت فى النفس ذكرى ٠٠ شذية الريح ٠٠ عذبة اللحن » ٠

صحا من حلمه المسكوب فى رأسه ٠٠ على صوت القائد :

ـ فليعانق كل منكم سلاحه يا رفاق ٠

الجنود قابضون على السلاح ، عيونهم كالصقور ، هاماتهم كذرى الجبال الريح تحمل أنفاسهم الحارة فتشيع الدفء فى المكان كله ٠ ساعات الليل تسابق زمنها وتدفع العقارب الى الأمام ٠

يلوح الفجر فى الأفق ، تلد تباشيره النور ، توقظ العصفور فى بطن الشجر ، تندى بساط الحقول الخضراء ٠

« آه يا نفحات النور العلوى ٠٠ يا اشراقة صباى البعيد ٠ أبى مازال فى عينى يذهب الى الحقل ٠٠ يعانق الفأس ٠٠ والفأس تشق الأرض ٠٠ عضلاته المصبوبة فولاذا فى ساعديه ٠ تنبثق من ثوبه الرمادى ٠٠ الشمس تصب عسجدها فى وجنتيه ، فيلمع وجهه النحاسى ٠

عملتنى يا أبى كيف أحمل الفأس ٠٠ وأشق الأرض

•• وأنظم أحواض الحقل وأسكب الماء ليورق الزرع • والآن عرفت كيف يكـون الفـأس •• وبالفأس حملت سلاح اليوم » •

قبض عـلى السـلاح ، يداه من حديد على ذراع المدفع • والجنود من حوله منتشرون •• خوذاتهم تلمع كالوهج ، وجوههم تتصبب بالعرق وقائدهم المغوار ، يجوب الأنحاء كلهـا ، يحنى هامتـه لهم ويبتسم وهم يبتسمون له •

حدق بين ثنايا الموقع •• رأى القناة والشاطئين • « ما أروع صفحة هذا الماء المنساب برفق • فى قريتنا كان النهر •• وفوق النهر جسر •• ومن قريتنا كنـا نعبر •• الى قرانا الأخرى •• لنذهب الى موالد الشيوخ •• نحلـم •• نغنى •• نسرد الحـكايات الجميلة •• نزرع الماضى فى نفوس الأهل • وبين الشـاطئين كان يفيض الخير •• يتـلاقى الشيوخ والعجـائز والولدان والفتيان •• وتسير دواب القوم •• والكل يعيش فى رحابة صدر أبوى •• وعناق حب عذرى •• وسـخاء كرم حاتمى » •

ـ حانت سـاعة الثأر الدموى يا أخـوة السـلاح المصرى •

كلمات من نار أطلقها قائد المعسكر ، وهو يتصدر صفوف الجنود· فاندفعت الكتائب والسرايا والجماعات، يمارسون الموت كما يمارسون الحياة ، يدفعون بأثقال الحديد الى الجسر الشرقى· النار غطاء سماوى، الدانات تشق كتل الحديد وتمزق اللحم البشرى · فيسيل الدم وترتفع هامات تعانق علا النجوم ، الأفق الكونى نشيد علوى رائع ، يتألق بقعقعة السلاح وزئير الطائرات وتكبيرات الجنود ·

والضفتــان تقتربان ، تتعانقــان ، تمتد اليهما شرايين الدم ، تتواصل الجسور وفوقها أرتال الجنود، ويتلاحم الحـديد باللحم البشرى والشـاطىء الشرقى يبعث نداء الحب ! هلمــوا الى يا رفاق قلبى من الحنين انصهر ، القلاع تتهاوى وتتصدع وتنهار ، البواســل يشقون حوائط الفولاذ ، يغوصون فى أعماق النار · الكل فى زحف قدسى ·

سار مع الزاحفين الى الجسر الشرقى ، ووقف على تل رملى ، تطلع أمامه ، رأى الصحراء بساطا ذهبيا ، يتألق بنور الشمس · (يا الهى ·· يذكرنى المـكان بحقل قمحى ، يوم كنا نخرج الى الحصاد فى أيام الصيف واليوم الشمس هى الشمس واللون هو اللون والأرض

هى الأرض ومنجلى بين ذراعى يحصــد عيــدان القمح أتذكر شيخ قريتنا وهو يحكى قصة السنابل ويحـكى أن القمح فى البلاد منذ الأزل خير موفور فى خـزائن الأرض) ٠

غمرته نشوة عارمة ٠٠ تألق وجهه بالنــور ٠٠ الصحراء : تعيد اليه سيرة السنين ٠٠ قبض على ذراع مدفعه ٠٠ أطلق حمم النار واصل القتال الثأرى ٠

شق جسده الرصاص ٠ سالت منه قطرات الدم ٠٠ تساقطت عــلى حبـات الرمل بدت فى عينيـه ســنابل قمح ٠٠

حـدق فى طيـور البحـر وهى تغيب فى لجتـه الفيروزية وقال :

ـ كنت أبحر بمركبى مثل هذه الطيور ·· أعشق البكور المشبع بنسائم البحر ·· أبسط الشراع الأبيض وأغنى أغنيـة يرددها صبية فى عمـر الـزهور · ثم يحملنا الموج الى الداخل فنرمى شباكنا ونشدها محملة بالصيد الوفير ·

ـ انتهت الحرب بالنصر الذى ترقبناه على أحر من الجمر ، وستعود الى صيدك من جديد ·

صحت فى عينيه نظرات لامعة وقال :

ــ يوم جنــدت فى ســلاح البحرية ٠٠ كنت أكثر الناس سعادة لأننى ذهبت الى ما كنت آتمناه ٠ ويــوم قامت الحرب ٠٠ وركبنا البحر ٠٠ وحملنا المــوج الى معارك كثيرة ٠٠ كنت أعــرف أسراره أعــرف غضب الموج والريح ٠٠ أعرف الصخور والأعماق ٠٠ حتى الطيور كنت أعدد أسماءها وأشكالها وألوانها ٠

وافتر ثغره عن ابتسامة عريضة ومضى يقول :

ـ وحتى تغريدها ٠٠ كنت أدرك صوت كل طائر٠

انساب الموج هادئا رائعا ، والتف حــول الصخور وعانقها ، وبث لها أسراره ، ومشطت بقايا ذيوله وجه الرمال ٠

فراح يجول على الشاطىء ، ويدفن ساقيه فى بطن الرمال ، وتلمع النظرات فى عينيه ، وتعانقه مشــاعر غضة ، وتتبرعم فى رأسه رؤى ماضيه البعيد ، وتنسرد فى ذاكرته قصص وحكايات ٠

فيقول لصاحبه بصوت عذب :

ــ قبــل أن أنزل الى البحر حــكوا لى عن أعاجيب الماء وبعد أن عرفت المهنة عرفت أسرارا أكثر ٠ كنت وأنا فى الأعماق آفكر فى مخلـوقاته حلمت بعــروس

البحر ٠٠ واشتهيتها يوما ٠٠ وبت أترقب رؤيتها ٠

وابتلع ريقه واسترسل يقول :

ــ ويوم قامت الحرب ٠٠ كنت أطلب الشهادة فى كل لحظة ٠٠ كنت أحلم وأنا أصارع مع رفاقى الجنود سلاح العدو ٠٠ أن يفتح الله لى بالموت أسرار هــذا المجهول ٠٠ لأكتشف أعماق الماء وأسرار مخلوقاته ٠

قال الآخر ضاحكا :

ــ عمر الشقى بقى ٠

لم ينتبه الى ما قال صاحبه وأنشأ يقول :

ــ خرجنا يوما لعملية عسكرية انتحارية ٠٠ أنا ومجموعة من رفاقى ٠٠ وكنت قائد العملية ٠ وبعــد أن دمرنا هدف العدو العسكرى بجدارة وجســارة ٠٠ عندنا بقواربنا المطاطية فى ظلمة الليل ٠ كنت ساعتها أسعد مخلوقات الله وأنا أضاجع الأمواج الثائرة ٠٠ وأصافح بنظراتى السماء اللامعة بالنجوم ٠٠ فيسرى فى أوصالى المنداه بماء البحر ٠٠ دفء حار ٠٠ وشوق عارم ٠٠ الى شىء غامض ٠٠ لا أعــرف سره وكثيرا ما خرجنا الى عمليات عســكرية ٠٠ وكثيرا ما حققنــا

الانتصارات • وكنت فى كل مرة أبحث عن هذا المجهول الذى أترقبه •

قال رفيقه :

ــ قلت لك •• سنعود الى صيدك ويحرك ثانية •

ــ ما أروع وجوده فى تلك الأيام الصادقة عندما تتطهر النفس بالتضحيات وتتطلع بحرقة الى كل هدف نبيل • وفجأة •• خلع سترته العسكرية وقال وهو يشير الى صخرة بعيدة :

ــ تعودت أن أزورها كل يوم •

وانساب فى الماء برفق •• ثم أوغل فى الموج • وصديقه على الشاطىء ينظر اليه حينا وحينا آخر يفكر فيما قال • ويتذكر هذه الحرب التى أطفأت ظمأ كل ثأر ، ويسترجع مواطن البطولة فى كل موقع ، ويعيد الى مخيلته الحكاية منذ البداية حتى النهاية • وينتشى بكلمات صاحبه ، وبأحداث مما رأى على ساحات القتال •

وفى نشوة حلمه البعيد تذكر صاحبه الذى ولج فى البحر •• فعاد وألقى اليه البصر فرآه فى لجته نقطة سوداء •• تحوم حول الصخرة البعيدة • وطال

الوقت دون أن يعلوها كما عوده فى كل مرة . فجعل يترقبه فى خوف فرأى النقطة .. تتلاشى .. وتتوارى ثم تغيب تماما . والموج يعلو .. ويعلو .. ويجلد الصخور .. والريح تزأر وتغضب وتبطش بجبال الموج .. والرمال تنسحب من تحت قدميه على الشاطىء . فصرخ من أعماقه وطفق يجرى ويلوح بيده فى يأس.

وما أن هدأت الريح .. وسكن الموج حتى راح يتذكر كلمات رفيقه الذى رحل :

« كنت أحلم وأنا أصارع مع رفاقى الجنود سلاح العدو فى أعماق الموج .. أن يفتح الله لى بالموت سر هذا المجهول .. وأسرار مخلوقاته » .

جماعات المقاومة الشعبية تصول وتجول فى مدينة القمر ، يندفع رجالها ويتناثرون على الشاطىء ، تحدق عيونهم فى لجة الماء الفيروزى · يعتلى قائدهم صخرة تلتف من حولها الأمواج ويقول بصوت جلى النبرات :

ــ أسطول العدو يقترب من الشاطىء ·

يصيح الرجال ، تمور فى صدورهم مشاعر مستعرة ، ويتوافد الجنود من كل صوب · نداء صاخب يملأ السمع « لن نستسلم ·· لن نلقى السلاح ·· سنحارب ·· سنحارب » ·

الفتية والفتيات والأطفال يملأون ساحات المدينة

•• يغنون ويقرعون الطبول •• والنساء فى الشرفات تنفطر قلوبهن لهفة•• على قرة أعينهن وفلذات أكبادهن •• الذين فى الميادين وعلى الشواطىء وفى المـواقع والدشم •

ليل المدينة يزحف رماديا ملء البصر ، فتشتعل فى العيون مصابيح النور ، دانة مدفع خائن تجتـاح عددا من المنازل ، فتصرخ النساء ويولولن ، ويتناثر الأطفال فى الزقاق والشـوارع فى كتـل من اللحـم البشرى ، يتساقطون وينتصبون ثم يجرون فى الأنحـاء كلها •

تحتدم المعركة ويشـتد أوارها •• الطائـرات تقصف مدينـة القمر •• فتتحول الى جحيم من النـار والحمم • تشحذ المعركة الهمم فيخرج الجميع•• الرجال الشيوخ والنساء •• والشباب والفتيات والأطفال•• الى ميادين القتال •

الدماء تسيل •• وترسم خطوطا •• وأشكالا على أرصفة الشـوارع فيتفجر بركان الغضب والثـأر فى الصدور •

ـ يا لروعة هذا المشهد البطولى الفذ •• يا لعظمة

هذا الشعب · قالها صـحفى لزميله وهو يجسـد بآلة التصوير مشاهد ما يراه ·· رمقه طفل جسور بنظرات حادة وقال فى غضب :

ـ ألق ما فى يدك ·· وأحمل السلاح ·· وقاتل معنا ·

يشمل الصحفى الطفل بعينيه ، ويطالع وجهه ، فيرى فيه الارادة ·· والشجاعة · فيضع آلة التصوير على ظهره ، ويسحب مدفعه ، ويصول ويجول ، ممتثـلا لقول الطفل ·

المدينة مازالت تقاوم والطفل الحاد النظرات ذهب يبحث عن أمه وأبيه · قال صاحبه :

ـ أبـوك ذهب الى البحـر مع المقاومة ·· وأمك تداوى الجرحى ·

اندفع الطفل بين الجموع ·· بين النار والهشيم ·· يغنى بالأهازيج ويحمل فى يده سكينا طويلا ·· فهذا ما وجده فى بيته ·

القوات الانجليزية والفرنسية لم تستطع الاقتراب من الشاطىء ·· المقاومة تحصد جنودهم ·· بور سعيد غاضبة وتقاوم كلها بشراسة ·



كلمات جنائزية تهمس فى أذن الطفل :

ـ استشهد أبوك على الشاطىء وهو يقاتل الانجليز والفرنسيين فتسيل عينا الطفل أدمعا ·· وتسرى فى حناياه مشـاعر مبهمة ·· ويسبر أغواره مجهـول لم يعهده من قبل ·

★★★

الطفل قاسم فى مدرسته يتلقى درسه الأول ·

« قاومت المدينة العدو بشجاعة ·· العـالم كله يتحدث عن مدينة القمر ·· الأمم المتحدة تدين العدوان ·· وتطالب بجلاء المعتـدين · الانجليز والفرنسيون ينسحبون من مصر ·· وهم يجرون أذيال الهزيمة ·· ويواجهون فى انكسار غضب العالم » ·

★★★

يغيب وجه الطفـل قاسم فى الحـزن ·· فيسأله مدرسه ما يبكيك يا قاسم ؟ فيقول :

ـ مات أبى يا أستاذ ·

فيهتف كل تلاميذ الفصل وعلى رأسهم مدرسهم :

ـ مات شهيدا يا قاسم ٠٠ نحن نفخر معك بهـذه الشهادة ٠

تنفرج شفتا الطفل عن ابتسامة خافتة ٠

تأتى أمه وتأخذه الى الشاطىء وتقول وهى تنظـر الى البحر الفيروزى والى طيور بيضاء توغل فى لجـة الماء :

ـ اقرأ الفاتحة يا قاسم على روح أبوك ٠٠

ثم تشده الى صـدرها وتغرق عيناها فى الدموع وتقول :

ـ غاب فى الماء مثل هذه الطيور المهاجرة ٠

★★★

تمضى السنون ٠٠ ويأتى قاسـم فارع العـود ٠٠ مرفوع الرأس ٠٠ وضىء القسـمات ويقبـل يد أمه ويقول فى فرح وسرور :

ـ بذلت من أجلى الكثير يا أماه حتى صرت ضابطا فى قواتنا المسلحة ٠

فتجرى على وجهها ابتسامة حارة وتقول :

ـ هذه هى سعادتى الكبرى يا ولدى ٠

ويسعد قاسم بأمه ·· وبحياته مع السلاح الذى كان يــروقه ·· وبصــحبته مــع رفاقه المصريين ·· والعــرب وهم يجتمعون ويتناقشــون ·· فى لقــاءات مثيرة ·

ويسأله تونسى :

ـ هل تستطيع مصر هذه المرة منازلة الاسرائيليين؟

فيقول الضابط قاسم :

ـ أعددنا لهم العدة ·· وسنعطيهم درسا لن ينسوه ·

ويضيف سورى :

ـ عودتنا القاهرة أن تفاجئنا بالقرارات الحاسمة القاطعة ·

ويسترسل عراقى :

ـ لن ننسى وقوفهم معنا لطرد الاستعمار وأعوانه ·

ويعقب جزائرى :

ـ القاهرة التى ساعدتنا فى طرد الفرنسيين من بلادنا ·· وقاومت المستعمر فى كل مكان ·· قادرة على صنع البطولة فى أى وقت · ثم يجلسون ·· حول مائدة

واحدة ويحتسون ·· القهوة العربية فى حب وشــوق ومودة ·

★★★

يشتعل قاسم حماسا أثناء نذر الحرب ·· فالحرب على الأبواب ·· والماضى ·· الذى شاهدته عيناه فى مدينة القمر يصحو من جديد ، ويشرق نورا ، ويسرد قصة رفاقه الذين رحلوا وهم يذودون بالدم عن الوطن· الأشياء تبدو أمامه جميلة، والحياة تتجمل كعرس باهر، موشى بالورود والأزاهير ، وبالياقوت والمرجان وبكل نفائس البحر الذى غاب فى أعماقه أبوه ·

تتأكد الحــرب ، ويعلو صـوتها فى صــدر الوطن فتقول أمه :

ـ أين أنت ذاهب يا ولدى ·· ؟؟

ـ الى الجبهة يا أماه ·

فينقبض قلب الأم ·· وتتداح أمامها عــلى مرمى البصر مشاهد أيام مضت وسنين ولت · فيرتجف قلبها بين حناياها · فتلتصق به ويتصدع كل ما فيها ·

فيهش فى وجهها باسما ويقول :

ـ انت المثل الذى أقتدى به يا أماه •• هونى على نفسك •• الكل ذاهب لينال هذا الشرف •

ويرحل قاسم •• ويبقى طيفه فى مخيلة أمه •• صورة من أبيه • برجولته •• وجسارة قلبه•• وصوته الممتلىء •• وقوامه الفارع • « كل ما فيك يذكرنى بأبيك يا ولدى قاسم » •

★ ★ ★

سيناء حقول من البشر ، القوات المصرية تطوى أبدية اللون الأصفر ، عجلات الحديد تزرع أنحاءها ، المدافع تنتصب بين حنـاياها وفوق رباها • والجنـود تعتـلى وجـوههم نظرات شـامخة ، وتغمـرهم أفكار أسطورية « يا قاسم يا بن مدينـة القمـر •• قد حان الـوقت الذى تثأر فيه لأبيك •• أبـوك مازال يمـلأ مخيلتك •• لن تنسى تلك الجياد التى صهلت فى مدينة القمر•• لن يبرح ذاك اللحم البشرى المذبوح ذاكرتك• لن تنسى وجه أبيك الذى رحل وعلى شفتيه الأهازيج والأغنيات والترنيمات » •

نظر أمامه وحدق فى البحر ، فرآه هائجا صاخبا، الموج يتجاوز الصخور ، أدغال الماء تسابق الريح •

والعريش مسحوبة من ورائه مدينة بيضاء ·· تلف ربوعها أشجار النخيل ·

فجأة تفجر الموقف كالبركان ·· واهتزت الأرض كالزلزال ·· طائرات تمرق من البحر كالغربان الكالحة ·· تصور ·· ثم تعود أسرابا ·· وتضرب الشواطىء ·· وتغوص فى بحر الرمال الصفراء ·· وتفجر كل ما فيـه من مواقع مصرية · لا طائرات مصرية تواجه طائرات العدو ، لا سلاح م · ط لديه القـدرة عـلى منازلة طوفان الجو ، فالطائرات تنقض عـلى المـواقع كالاعصار ، والجنـود المصريون يواجهـون المسـتحيل بفدائية · الدبابات البرمائية الاسرائيليـة تقفز من البحر الى الشـواطىء ، فيصطدم بهـا أفراد القـوات المصرية فى عمليات انتحارية باسلة ، الحـديد والنار يواجه اللحم المصرى العارى من الدروع والسدود ·

قال جندى من الموقع فى يأس قاتل :

ــ أين طائراتنا يافندم · ؟؟

رد قاسم وهو يطالع مناجل الحصاد فى كل مكان :

ــ فى الطريق الينا ·

ـ أفراد المشـاه يتصـدون لجحـافل المـدرعات الاسرائيلية ٠

ـ سنقاوم حتى آخر طلقة ٠

ـ هذا شيء فظيع ٠ !!

يصرخ جندى آخر :

ـ العريش تحترق ٠٠ العريش تحترق ٠

المدينة البيضاء تلتهمها النيران ٠٠ الدخان يحيلها وجها أسود ٠ الصراخ والعويل والبـكاء يمـلأ أجواز السماء ، الناس تهيم فى الصحراء فى موج بشرى ٠٠ الموت فى كل مكان يحصد المئـات ٠٠ يصرخ الجنـدى ويبكى كل من فى الموقع وتخضل عينا قاسم بالدموع على الأمل المذبوح بين يديه ٠ تمرق طائرة منخفضـة وتصور الموقع يصدر قاسم أوامره بالانتشار سريعـا تحسبا لهجوم مرتقب ٠ يأتى سرب من طائرات العـدو ويقذف الموقع بالحمم ، يدافع جنـود المـوقع المصرى ببطولة وفداء ، النار تشتعل فى كل مكان ٠ تتقـدم دبابة للعدو وتحاول اقتحام الموقع فيتصدى لها قاسم ومعه مجموعة انتحـارية بالقنـابل اليـدوية ومدافع البازوكا ، تحترق الدبابة وينفجر برجها ويموت من

فيها • تتدافع دبابات العدو وتشد الحصار على الموقع، فتشتد المقاومة وتسقط دبابة أخـرى للعـدو فتنطلق القـذائف والدانات بوحشـية فتحيل المـوقع بنخيله وأشجاره وناسه وعدته الى لهيب وموت ودمار •

الليل يزحف كئيبا •• والمقـاومة المصرية تخفت •• يقول رقيب أول الموقع للقائد قاسم :

ـ نفدت ذخيرتنا يا فند •

يلقى قاسم نظرة حزينة ويتساءل فى حسرة :

ـ كل الذخيرة •• ؟؟

ء نعم يا فندم •

★★★

الليل موحش •• والبحر ثائر غاضب •• والموج يصارع الموج •• وقاسم يحمل رشاشه •• فجأة يواجه مدرعة نصف جنزير •• فيستتر خلف ساتر رملى •• ويقذف المدرعة بالقنابل اليدوية •• فتتراجع المدرعة الى الخلف ثم تتقدم من جديد بعد أن تلحق بها أخريان تتقدم الثلاث المدرعات ويلتفون حول الـكثيب الرملى ويقـذفونه بالنيران • يخترق الرصـاص صدر قاسم ينزف منه الدم بغزارة • ينظر قاسم أمامه فيرى البحر

مازال ثائرا • فيتذكر قول أمه يوم معارك القناة فى مدينة القمر :

ـ أبوك ذهب بعيدا فى هـذا البحر يا ولدى •• مثل هذه الطيور المهاجرة •

ويرحل قاسم الى الطيور المهاجرة •

★★★

ابيضت عينا أم قاسم حزنا على رحيل وحيدها •• راحت تجول فى المدينة وتسـمع من النـاس عن تلك المذبحـة التى راح ضحيتها آلوف الشـباب فى بوادى سـيناء • قصص وحـكايات ، يشيب من هولهـا شعر الوليد • فيتوجع قلبها ويغوص فى قاع سحيق، ويزامن حزنها حزن الوطن كله • فمصر تلعق جراح النكسة ، والجروح تنزف دما من كل قلب مصرى •

وتبقى أم قاسم وحيدة حزينة شريدة ، فى بيتها على الشاطىء ، فتأتى اليها النساء ملثمات بالسواد ، وينشرن أحاديث الرحيل والغربة والموت • ولم يبق فى مدينة القمر الا الوحشة والحسرة •

وتقصف المدينة بحراب الهكسوس من جـديد ••

ويحترق ما فيها ثالثة • تأتى اليهـا أم ثكلى وتقـول فى أسى :

ـ سنرحل عن المدينة يا أم قاسم :

ـ لم يا أختاه •• ؟؟

ـ الجيش رفض الهزيمة وقرر أن يهاجم العدو فى مواقعه على الشاطىء الآخر • والعدو سيضربنـا فى المدينة •

★★★

فى زحمة الغربة وامتلاء الحجرات بلحوم المهجرين تعيش أم قاسم مع أسرة من أبنـاء مدينتهـا ، تجتر أحزانها وماضيها الذى أفل ، وتتحسر عـلى ما فات ، وتيأس على ما سـوف يأتى • ويزداد وجههـا كسـوفا وجسمها نحولا وضعفا الى أن تأتى اليها طبيبة شابة ، ملأت ذاكرتها سنوات الحرب والتهجير فتقول لها :

ـ علمتأنك تعرفين شيئا عنالتمريض يا أم قاسم

ـ أجل يابنتى •

ـ ستأتين معى الى المستشفى لتتذكرى ما تعرفينه •

فتفرح أم قاسم بالعمل الجديد وتطلب أن يكـون

عملها معالجة جرحى حرب الاستنزاف ·· وتعود بسمة خافتة الى وجهها المشحون بالحزن ·

★★★

« عبرت قواتنـا الى الضفة الشرقيـة من القناة » التصقت أم قاسم الى المذياع وهى تسمع هذه الكلمات ثم تأكد لها الخبر بعد أن توالت البيانات تباعا ·

أشرق النور على وجه أم قاسـم وانتشت بفـرحة متوهجة ودبت فيها العافية وتسابقت بيانات العبـور والنصر · فعاود أم قاسم الحلم القديم ·· أيام مدينـة القمر ·· وتجلت الأيام فى ذاكرتها صفحات بيضـاء ·· موفورة العطاء ·

راحت أم قاسم تضمد جراح الجنود وتمرض كل عائد من الجبهة فى حب وعطف ولم يعـرف جسـمها الواهن طعم الراحة حتى أتت اليها الطبيبة الشـابة وقالت :

ــ الراحة يا أم قاسم ·

فتقول ونور غريب يسطع فى عينيها :

ــ سأظل أعمل حتى يرانى قاسم وأبوه ··

فتكسو الدهشة وجه الطبيبة وتمضى ٠

وتشتد نوبات العمل وتذهب أم قاسم فى سـيارة اسعاف الى مكان قصى لعمل مفاجىء ٠٠ وهنالك فى مكان ما من مواقع الجنود تصافح وجه شاب جريح فتقول وهى تضمد جرحه بحنان دافق :

ـ ستشفى باذن الله يا ولدى قاسم ٠ !!

فيعترى وجه الجندى الجريح تساؤلات حائرة ٠٠ تسترسل وتقول :

ـ يقول أبوك يا قاسم انك ستشفى من جرحك لنذهب معا الى البيت ٠

فيزداد وجه الجندى دهشة ٠٠ !!

وتذهب أم قاسم فى سيارة الاسعاف وفى طـريق العودة تمرق طائرة وتضرب السيارة ٠ فتسرع قوات الشرطة العسـكرية وتفحص السـيارة فترى امرأة قد فارقت الحياة ٠

ذو الوجه القزحى

جمعهم قائد المعسكر فى ليلة ندية النسمات وقال:

– عرفت كل شىء عن مستوى أدائكم العسكرى ، وأريد أن أعرف جزءا يسيرا عن حياتكم المدنية ، ليتم بذلك التآلف وتمتزج الأرواح فى بوتقة واحدة ٠

غمرت الجنود الفرحة وعمهم السرور ، بهذا القائد الذى ساد حبه الجميع ٠

قال وليد :

– بعد أن تخرجت من الجامعة انصبت كل أحلامى ما بين حياتى الوظيفية وبين أمى المريضة ، التى ضحت

بالكثير من أجل تعليمى وأخى الأكبر الذى كافح معنـا بعد موت أبينا • وكنت كل شهر أضع جنيهاتى فى يدى أمى • وأحلم بشفائهـا ، وتخفيف الحمـل عن أخى ، وتعليم اخوتى الصغار أما الحب فقد قهرنى أو قهرته ، كلاهما سواء ، لأننى لم أستطع أن أقيم عشا زوجيا • ولاذ بالصمت •

بادره سويلم قائلا :

انك تذكرنى يا أخى وليد بأبى الشـيخ ، فأنا ورثت عنه زورق صيد بعد أن عجزت ساعداه عن قذف الشباك وأحببت البحر والنهر ، لقد غرس أبى فى قلبى منذ الصغر الغوص فى أعماق الموج• وما زالت صورته أمام عينى وهو على الشاطىء ينتظر عـودتى • وكم تكون فرحته عندما يمسك بالزورق كأنه يقبض عـلى مفقود قد وجده • وفى البيت تعد زوجتى الطعـام ، ويجلس أبى وأولادى على فخذيه وبين يديه ، وعندما أطلب من صغارى الجلاء عنه ، يغضب وتهرب الابتسامة من وجهه ، و لاتعود اليه الا بعد أن يعودوا هم اليه •

قال هنداوى :

ـ عشقت أنت يا سويلم البحـر ، أما أنا فقـد

عشقت الأرض ، وكلانا يأتي بالخير اشتقت الى الفــأس وحبات الندى فوق بساط الزرع ، ولفائف شــجيرات القطن البيضاء مثل قلب زوجتي المجــاهدة في البيت والحقل • حن قلبي الى ليالي الحصاد في الصيف والقمر المسكوب نورا في أنحاء الكون • وأولادي الصغار وهم يمرحون ويلعبون بين الشواطىء المعزولة بالعشب • ضحك شعبان بملء فمه وقال :

ـ أحببتما البحر والنهر ، والحقل والأرض والقمر ونسيتما من يصهر الحديد ويذيب الفــولاذ كل يوم • وجهي في الشمس يذكرني بأفران النــار والهــامات المنصوبة أمام المصنع • وبفرحتنا المنقوشة في القلب عندما نرى كتل الحديد قد صارت نماذج وأشكالا تسر العين • وعودتي الى المنزل وجسمي كله شحوم وزيوت وبقــايا دخان المــوقع • وزوجتي الطيبة القلب وهي تغسل آثار يومي ، وتعد طعــامي ، ثم زياراتي لأبي وأمي واخوتي وجيراني وأصــحابي ، وســاد المــكان الصمت •

كسر القائد السكون وقال :

ـ وانت يا عاشور • لم لا تتكلم •• ؟؟

قال عاشور :

ـ اشـتغلت بالمقـاولة • مهنـة ورثتها عن أبى وأجدادى •

قاطعه الفلاح :

ـ لقد قلت انك تشتغل بالتجارة •

ـ المقاولة كالتجارة لا فرق •

وأضاف شعبان :

ـ وقلت لى انك تملك أرضا واسعة •

ـ هذا صحيح أيضا •

وضحك وليد وقال :

ـ وأخبرتنى بأنك تملك أسطولا من سيارات النقل •

رد عاشور والزهو يعانق وجهه :

ـ كل ذلك يكون صحيحا فى اطار من يملك الأشياء الكثيرة •

قاطعه القائد قائلا :

ـ أتملك أشياء كثيرة فى آن واحد • ؟؟

ـ نعم •

رشقه القائد بنظرة ساخرة وقال :

ـ مثل ألوان قوس قزح • !!

شنفت الكلمات أذنى عاشـور ٠٠ !! وعلا وجهه غرور وخيلاء ٠

وساعتها أطلق عليه كل من فى الموقع « ذو الوجه القزحى » ٠

★ ★ ★

ومضت شهور ثم قامت الحرب ٠

واهتزت الأرض واحترقت وزمجرت وماجت وخرج جنود الموقع وكلهم أحلام بالثأر والصحبة فى الحـرب كانت كما كانوا قبل الحرب ٠ فعبروا جسور الموت ٠ امتطى سويلم الصياد مع رفاقه الجنود زوارق المطاط وأحلام الشاطىء الآخر تشدهم اليه ، ونداء قوى يشعل فى نفسه سعير الشوق ٠ وبينما هو يجتاز الماء والنار انطلقت رصاصات العدو رشقت نارها صدره فتمايل واهتز فحاول هنداوى الامساك به ولكن سويلم سقط فى مياه الموج ٠

عبر الجنود القناة الى الجسر الشرقى ، وصـورة سويلم لم تفارق مخيلة هنداوى ـ تسلق التلال ، مشط بالنار كل ما يراه ٠

وبينما كان يتسلق جبلا رمليا ضربه رشاش دبابة

فأصاب الرأس ومزق الجسد فسقط فى حضن الأرض وهو يقبض على حبات الرمل ·

فأمسك شعبان مدفعه المضاد للدبابات ونار الثأر تمور فى رأسه · فراح يطارد الدبابة ، اختفى خلف تل رملى ، وأخـذ يضرب صلب حـديدها بمدفعه حتى توقفت عن السير · تقـدم الى الأمام · وقذف برجهـا بقنبلة يدوية وظل يضرب حتى قضى على كل من فيهـا وتسلق الدبابة وصرخ بأعلى صوته علامة النصر وفجأة اخترقت جسده رصاصات كثيرة فسقط شعبان وسـال دمه على دروع الحديد ·

تقدم وليد والموقع أمامه يتهاوى، لم يبق الا مقاومة قليلة ويتم النصر جاهد الجنود واستبسلوا حتى انهار الموقع فى أيديهم ·

اعتلى وليد قمة الموقع وغرس العلم والفرحة تغمر كيانه كله ·· مرقت طائرة فى سرعة البرق وضربتـه بالرصاص · التف وليد حول سارية العلم وسقط وهو يحتضن السارية والعلم يخفق فوق الرأس ·

وهوت كل قلاع الشاطىء وكان النصر ·



ومضت شهور • ثم حان يوم احتفال الموقع بانهاء خدمة بعض الجنود فراح القائد يوزع شهادات انتهاء الخدمة على الجنود وفجأة توقف وهو يعطى لواحد منهم أوراقه •

فتساءل الجندى فى دهشة :

ـ ألم تعرفنى يا فندم • ؟؟

هز القائد رأسه وقال وفى عينيه الحقيقة كلها :

ـ أعرفك جيدا •

ضحك الجندى بملء فمه وقال :

ـ لم يبق الا ذو الوجه القزحى • !!

رصاصات مستقرة

ثقلت خطـواته . تعثر وترنح ، افترش الأرض وأمسك ساقه التى اشتد بها الألم . طار طائـر أزرق اللون من بين أغصان الشجر ، التقطت عينـاه الطائر وهو يعلو فى السماء ويمتزج لونه بلون الأفق .

كنت لا ترى الا العلا والشهب .. هامتك الشماء لم تعرف الا الشمس والقمـر .. لعبت بالنـار حتى استعر وجهها فى عينيك ، فكانت معبر جسورك غنيت معها لحن الثأر والدم .. تساقطوا شراذم تحت قدميك .. ثأرت للمـاضى الذى ولى .. مقـرونا بالدم .. حزينا بالأمهات الثكلى والأرامل النائحات الباكيات .. والولدان الأيتام المقهورين .

قفزت الابتسامة على شفتيه ·

عاوده الألم فى ساقه واشتد ·· نظر أمامه ·· لمعت فى عينيه أنوار رصعت معمارا شاهقا·· اصطفت فى أدواره السفلى مقاصف وحانات تموج بالبشر ·

مرت سيارة فارهة واقتنصت فتاة ناضرة الشباب من على قارعة الطريق · تجمع ثلة من الفتيان بقمصان صفراء وحمراء وراحوا يتلقفون كل امرأة مارة ، أو عجوز كهل بالنكات والسباب ، وأمامهم على المقصف رجال تتدلى على شفاههم ابتسامات ساخطة عاجزة ، هم أن ينصب قامته ويحطم الرؤوس التى أينعت ورأى أن يقطف نزواتهم ويخفف عنهم رزاياها ، فخانته ساقه التى اشتد بها الألم · شردت نظراته ، تذكر نفسه ومصيره ومستقبله استرجع فى رأسه صاحب قوته وهو ينازله العداء السافر ، ويطحن رأسه كل يوم بالحديث عن علة ساقه التى ثقلت وأفقدته الحركة ومقولته التى لا تنفك عنه كل صباح « كيف أعول عاجزا مشلول الحركة ؟؟ كيف أطعم من لا يستطيع جلب قوت يومه » وعندما اشتد به الضيق ثار فى وجهه وفار ومار ، وقال للسيد صاحب العمل وحامل خزائن مال الفقراء المطحونين : لم أكن يوما عاجزا أو كسيحا، كنت أخوض

النار ·· وأجتاز المصاعب بنفس راضية ·· ساقى التى عجزت عن الحركة كانت تقتحم جسور الموت ·· تخطو خطوات المستحيل ·· تزرع الأمل فى القلوب اليائسة · ساعتها قهقه الرجل ساخرا ، وردد سخريته زبائنه · ثم طرده صاحب العمل ومن يومها وهو بلا عمل ·

انتفض جسمه وارتجف ، سحت الدموع من عينيه ، أدارت الشجون رأسه ، فأمسك بجذع شجرة تساقط ورقها الأصفر فوق رأسه ، هبت نسمات باردة ، تندى وجهه المحموم بالعذاب · فانتصب قائما وتطلع الى الأمام ، فهو دائما يروم هذه النظرة ·

لمع النهر فى عينيه ·· انسابت بين شاطئيه فلك بأشرعة بيضاء ·· حملت اليه ريح الموج أغنيات عذبة دافئة ·· تمتم أصداءها · غمرته النشوة ·· نسى الألم فى ساقه ·· سار على الشاطىء ·· تذكر أيام الدم والنار ·· فلم يعد له الا هذه الذكرى التى تثرى قلبه بأشياء جميلة ·· وتشيع فى صدره شذى أريج طيب · امتد الطريق ببساط أخضر ·· غرد فى رحابه كروان مسبح ·

فجأة ! توقف • وتنبه على حديث هامس ، تسلل اليه من بين ظل كثيف ، تسلل الى الصـوت المتسلل ، أدركه فى عتمة الليل •• يدور بين شبح طويل عريض ملفوف فى جلباب وآخر قصير نحيف يتزى ببدلة فى لون سحنة الليل ، الطويل العريض يعترض على مكسبه من الصفقة لأنه هو الذى تحمل كل مخاطرها ، والقصير النحيف يداهن ويناور ويعد بأن الصفقة القادمة ستكون أكثر ربحا • سكت الاثنان وخرجا من ظلمة الليل الى سيارة مرسيدس، مديدة عريضة ، كشف كشافا السيارة الرجلين ، الطويل العريض يملك عمـارات عـديدة ، والقصـير النحيف صـاحب مقـاصف وكازينـوهات وحانات كثيرة ، وهـو فى الماضى كان رفيق صـباه ، التلميذ الفاشل فى الدراسة ، المصبوب فسادا وخبثا من أعلى رأسه الى أخمص قدميه •

أستقل الاثنان السيارة ، وولجا فى قلب الظلمة •

عاوده الألم فى ساقه واشتد واشتد •• شعر بثقلها •• امتد الألم الى جذعه •• ثم من جذعه الى كل جسمه حتى رأسه • انتابه شعور غريب •• أيام الدم والنار تطوف فى عينيه كالحلم •• كالحلم البعيد •• كالسـير والأقاصيص •• كأسطورة الزمن القديم •

كل شيء فى عينيه يلفظ حقيقته ٠٠ الرأس قد ثقلت واشتد ثقلها ٠٠ ارتفعت حرارته تلظت كأتون من اللهب ٠٠ دارت رأسه ومعها دارت الأشياء من حوله ثم سقط على الشاطىء ٠ أتى مارة فى الصباح ووجدوه ممدودا على الشاطىء ٠٠ حملوه الى المستشفى فحصه الأطباء ، قال التقرير :

« لقد فارق الرجل الحياة ٠٠ نتيجة رصاصات قديمة قد استقرت فى ساقه اليمنى أفسدت الساق وانتقل أثرها الى جسمه كله » ٠

فتشوا ثيابه يبحثون عن بطاقة هويته ٠٠ فلم يجدوها ٠٠ عثروا فقط على ورقة مكتوب فيها :

« نظرا للبطولة التى حققها المقاتل المجند ٠ ٠ ٠ فى حرب أكتوبر المجيد ٠٠ قررت قيادة اللواء منحه وسام البطولة والفداء » ٠

الوســـام

وقف ممشوق القوام ·· منبسط الأسارير وهــو يتقلد وسامه اللامع تحت وهج القنـاديل المرتعشــة بنسمات الليل الندية والجنود من حوله يمطرونه بالمدح والثناء · ثم هدر المعسكر كله بصوت قائده وهو يقول:

ـ احتفلت الدولة بتقليد مدحت وسام البطولة ·· والآن ·· نحتفل نحن أفراد الوحدة بتقليده الوسام حبا عرفانا بالفخار الذى منحه لنا جميعا ·

فدوت الساحة ·· بأكف الجنود · وبدأ الحفل فى ليل حلو عاطر النسمات وكان الجنود على منصة الحفـل يعيدون الى الأذهان فى حركات رائعة الأداء ·· حكايات

الحــرب ·· وما سجلته القــوات الخاصــة من بطــولات أسطورية ·

تجمل وجه مدحت سرورا·· وتواثبت أمام عينيه ذكريات المعارك ·· ورائحة البارود ·· والسعير المتلظى فى كل مكان ·· وتهادت أطياف رفاقه الشهداء وهم يبذلون دماءهم ·· رخيصة لاحراز النصر حيث كانت الشجاعة سمة كل نفس ·· والشهادة أمل كل مقاتل ·

وانتهى الحفل ·· وقلب مدحت يزهو بآيات الحب ·· والوفاء ·· كانت الدنا تتألق أمامه فى الساحة كلها ·· وكان يشعر بأن الحياة قد سرى فيها دم جديد بعد أن ضمدت الحرب بانتصاراتها·· جراح المأساة ، ومضت الأيام القليلة له فى الوحدة العسكرية ·· حلوة رائعة توجتها سيرة عطرة وصحبة طيبة مع رفاقه الجنود ·

انتهت الخــدمة العســكرية لمدحت ·· وسرح الى الاحتياط وهو يحمل وسامه الذى شغف به حبا ·· وضعه فى علبة أنيقة ·· وحفر له مكانا بين ضلوعه ·

وكان أهل الحى جميعا ·· يكيلــون له الثناء ·· فى ذهابه وايابه ·

تسلم مدحت عمله فى حياته المدنيــة وهو منتشى

القلب . ومثلج الصدر واستقبله .. الرفاق بالترحيب والتكريم .. والتفوا من حوله يصغون بحبالى حكاياته .. وأصبح فى عمله يسمى بصاحب الوسام .

★★★

دارت الفصول دوراتهـا .. وتتـابعت أيامهـا وشـهورها .. تفرز بين ثناياها الصقيع والقيظ . والمطر والقحط .. والليل والنهار .. وفغرت أبواب العمل مصاريعها .. تولج أشياء سقيمة .. وشحبت حوارى الليل .. وأزقة الظلام تنفث دخانا أسود ..

انحنى مدحت الى ملفاته .. وأوراقه .. وأنشأ يتأمل القنوط الذى يتغلغل فى أعماقه غير أن الضوء فى قرص الشمس .. تلاشى عن بصره وبصيرته .. وهبطت على السـاحة الظلمة .. فماج بالثـورة .. وتفجر صدره غضبا .. واندفع الى القـوم .. يشحذ هممهم .. وينبأهم بالخطر المحدق بهم .. وبالطوفان الجارف الذى سيغرق النماء فى الوادى الأخضر .

أخذ مدحت يفند لهم السقم النازل على رؤوسهم .. ويستنبط لهم أسبابه فقهقهت الأفواه فى غيبوبة سوداء .. وعادت الى يأسها ترضع الصمت وتلوذ به

حاول مدحت أن ينفض عن نفسه الغبار المتراكم على وجهه ·· وراح يبرعم فى مخيلته أيام الدم والنار ·· فوجد نفسه يهبط فى جب سحيق لا مقر له ولا مستقر فامتشق حسامه ·· وطفق يقاوم جحافل ·· القنـوط المتدافع من حوله فى كل مكان واستبسل فى المقاومة ·· دون جدوى وفى جنون غضبه وجموع ثورته ·· همس فى أذنه زميل من زملائه فى الشركة :

ـ أموال شركتنا ·· تنهب يا مدحت ·

قال مدحت غاضبا :

ـ من الذى يسرقها · ؟؟

قال فى لؤم :

ـ أظنك تدرك الأشياء من حولك ·

ـ لو كنت أعلم ما تعنيه لقلت ·

رد زميله ساخرا ·· ؟؟

ـ وماذا ستفعل ·· ؟؟

أجاب مدحت فى حسم :

ـ سأمنع السارق مهما كان ·

رمقه زميله بنظرة ثاقبة ولاذ بالصمت ·

وضع مدحت يده على كتفه وقال :

ـ أنت تعرف أننى لا أخاف من شىء ٠٠ لقد صلت وجلت فى قلب المعارك ٠٠ وواجهت الموت بنفس غير هيابة أكثر من مرة ٠

قال الرجل بدون اكتراث :

ـ ولكن هنا الخصم فيها يختلف ٠

اجتاحت مدحت ثورة عارمة وقال :

ـ الجبن هنا ٠٠ يركبكم جميعا ٠

رد الرجل على الفور :

ـ نعم يركبنا جميعا ٠

ثم هز رأسه ومضى يقول :

دع الخلق للخالق ٠٠ يا مدحت ٠

أخذ مدحت يتقصى مقولة زميله فى كل مكان ٠٠ حتى تجلت له الحقيقة ٠٠ فالسارق هو مدير الشركة ٠٠ ومن حوله زبانية يحيطونه بصلابة ٠٠ وهم جميعا ثلة متكاملة العدة ٠٠ والعدد فراح مدحت يعيد الكرة ليتحرى المعلومات والحقائق ٠٠ فى كل مكان ٠٠ فاستعصى عليه اثبات أى منها بسند قانونى ٠٠

فاســتنفز أصــحاب النخـوة والحق والفضيلة ··
ليناصروه فتوارى الكل عنه ·

فعقد العزم على أن يواجه الموقف منفردا فسلط المدير عيونه ·· فتواثبوا عليه كجيوش النحل ·· الكل يرغب فى لدغه ·

الجميع يتطوعون لتقديم الخدمات لسيدهم ·

ناهض مدحت الطوفان ·· وحيدا ·· وظل يقاوم فى مثــابرة وجلد · الى آن قيل له فى نهــاية الأمر · لا توجد أدلة على ادعاءاتك · أقوالك باطلة وفيهــا طعن لشرف وكرامة مدير شركتنا النظيف ·· النزيه ·

ومن حقه الآن أن يرفع عليك ·· دعوة رد اعتبار ·

قال له عين من عيون ·· المدير ناصحا اياه :

ـ المدير يمكن آن يصفح عنك ·· فكن رجلا من رجاله ·· ودعك من أوهامك السوداء ·

أنت الآن لست فى حرب مع العدو ·· الوسام هذه المرة ·· ليس لك بل عليك ·· سيحرق صدرك وسيكون وبالا ·· على مستقبلك افترسه مدحت ·· بنظراته ·· ثم تركه وقفل راجعا الى بيته ·· وما أن وصــل الى

حجرته حتى ٠٠ أخـرج الوسـام من علبتـه الأنيقة الفاخرة وأمسكه بيده ٠٠ وطفق يحـدق فيـه طويلا ثم وضعه على صدره وجعل يتأمل فى المرآة ٠٠ نفسه ٠

(الوسام هذه المرة ٠٠ سيحرق صدرى ٠٠ سيكون وبالا على ٠٠ يالها من كلمات ٠٠ واكفهرت ملامحه ٠٠ ومضى يقول : الوسام سيظل وسامى ٠٠ وأنا جـدير به ٠٠) ٠

وارتسمت على وجهه تشنجات حادة ٠٠ وراح ٠٠ يقهقه ٠٠ ثم تحـولت قهقهـاته الى صياح ٠٠ ونحيب وعويل فهرولت أمه اليـه فى فزع ٠٠ وقالت بعينين باكيتين :

ـ ماذا أصابك ٠٠ يا ولدى ؟؟ !!

فانفجـر فيهـا غاضبا ٠ وقال وعينـاه تذرفان الدموع :

ـ هذا الوسام ٠٠ وسامى ٠٠ وأنا جدير به ولن يحرق صدرى ٠٠ لن يحرق صدرى ٠٠

اندفعت الى أبيه صارخة :

ـ ابنى مدحت ٠٠ أصـابه ٠٠ مكروه ٠٠ ولدى الحبيب أصابه الجنون ٠

وثب الرجل ٠٠ الى حجرة مدحت ٠ فلم يجده ٠٠
بحث عنه فى المنزل فوجده خاويا ٠٠ انطلق الى الخارج ٠
وظل يبحث عنه فى كل مكان فلم يعثر له على أى أثر ٠

[فازت هذه القصة بجائزة المجلس
الأعلى للشباب على مستوى الجمهورية
الجائزة (٥) ١٩٧٦]

الزقازيق ١٩٧٦م

الشاطىء الآخر

قالت بصوت خافت لاهث :

ـ أخرج الى السوق كل صباح لأشترى حاجاتى ، ثم أعـود الى المنزل أنظفه وأطهـو الطعـام • ولكننى لا آكله ، فيبقى كل شىء فى مكانه •

ـ لم يا أختاه •• ؟؟

ـ تقتلنى قسوة الوحدة •

ـ وأين أولادك •• ؟؟

غابت عيناها الواهنتان ، وتحجرت دموعها عـلى وجنتيها كقطعتين من الثلج ولاذت بالصمت •

ربتت على كتفها وقالت :

ـ معذرة يا أختاه ان كنت قد أسأت اليك بهـذا السؤال ٠

فصافحتها بنظرات أشد حزنا وحسرة وقالت :

ـ ربينا وعلمنا ولم يبق لنا منهم شيء ٠

ـ دائما يرحلون يا أختاه ٠

ـ يا ليتهم رحلوا حتى تبقى صـورهم جميلة فى ذاكرتنا ٠

تساءلت فى دهشة :

ـ اذن فما الذى حدث ٠٠ ؟!

أصاب سهم قاتل قلبها فقالت فى أسى :

ـ انهم يعيشون فى هذه الدنيا الغادرة ٠٠ وفى هذا الزمان الفاسد ٠

ـ لم أفهم شيئا يا أختاه ٠٠ !!

أسندت المرأة العجوز ظهرها الى حائط قديم متآكل ورنت الى السماء الملبدة بالغيوم وقالت وهى ترتجف حزنا :

ـ مات زوجى وأنا فى شبابى الباكر فترك لى ولدا وبنتا ٠٠ فحرمت نفسى مما حلله الله ولم أتزوج ٠٠

وجاهدت فى سبيل تربيتهما حتى علمتهما وزوجتهما.

وندت عن المرأة أنة حزن ثقيل ومضت تقول :

ـ لم أكتف بما فعلت فأعطيت شقتى التى أملكها الى ابنى .. ثم تنكر لى الاثنان . البنت ذهبت مع زوجها فى سفر طويل ولم تعد تسأل عنى .. والولد ركبته زوجته وحرمتنى منه .

وسالت عيناها أدمعا ومضت تقول والكلمات تحترق على شفتيها :

ـ بعد أن أعطيته الشقة طردنى منها .. فبحثت لى عن حجرة صغيرة فى بيت قديم يتناسب مع معاشى الضئيل الذى لا أملك سواه .

وكست سحابة من الأسى وجهها المتغضن ثم تركت صاحبتها ومضت الى سبيلها وسط الريح العاصفة .

فرثت الأخرى لحالها وقالت لنفسها فى حزن : يا لعقوق الأولاد .. وجحودهم .. هكذا يفعل بنا فلذات أكبادنا !! .

ولكنها استدركت ما قالت .. ففكرت وصحت من قصة العذاب التى سمعتها على ذكرى مضت .. على وجه

مضىء رائع المحيا •• تجسد فى مخيلتها فارسا نبيلا •

فشدت خطاها •• نسيت البرق والبرد والمطر •• حتى باب منزلها • فتحتـه ودخلتـه •• فلم يروعهـا الصمت الذى كانت تشعر به من قبـل تركت الحـزن والأسى فى حجراته الساكنة • خلعت ثوبهـا الأسـود وغسلت وجهها وأزالت عنه آثار الرحلة •• وجلست فى حجرتها ونظرت الى الحائط •• وصافحت صورته •• وتأملت عينيـه اللامعتين العطـوفتين •• تذكرته طفلا رائعا يشرق وضاءه كان يفـوق قرناءه ذكاءا ، استرجعت يوم رحيل أبيه وهو يقول لها بنبل صادق : « لا تغشى الزمن يا أماه أنا طوع مشيئتك » •

وتمضى بها رحلة السنين ، ويتدفق فى صـدرها احساس عارم ، يوم كانت تراه ممشـوق القوام تعتلى كتفيه نجوم العسكرية اللامعـة فتقول له وهى تمطره بنظرات حبها :

ـ ما كان لك أن تصـير ضـابطا وأنت وحيـدى يا ولدى •

فيقبل يدها ويقول : دخلتها لأحميك يا أماه من عدوان الزمن وتدقق فى صورته وتغرق فى ذكرياته

يوم كانت تملأ عينيها وسـامته وكيف كانت ترومه كل فتيات المدينة فارس أحـلامهن • ويتمنـاه كل الآباء زوجا لبناتهم وتستعر الذكرى ، فتسرد سنوات شبابه المشرق عندما كان يأتى اليها والبسمة تعلو وجهه الذى يتفجر بالرجولة ويقـول : « لو طلبت لبن العصـفور لجئت به لك يا أماه » •

فتضمنه الى صدرها وتقول فى لهفة : بل قل أنت ماذا تريد أن أفعله لك يا ولدى ؟؟

فيرد ووجهه ممتلىء بالمـودة : الرضا يا أماه •• لقد بذلت وجاهدت وأعطيت كل ما عندك وحان الوقت الذى أرد لك هذه التضحيات العظيمة •

وتوغل فى بحار الذكرى •• عندما تسترجع أيام الحرب والعبور الـكبير وبطولات الذين أتوا بالفجـر لأمتهم • ثم يرتجف كل ما فيها ويسـودها حزن مهيب عندما أتى رفاق ابنها يقولون ورهبة الموقف فى وجه كل واحد منهم :

ـ كان فقيدك الراحل يا أمنا أول شهيد يرفع علم بلاده فوق الشاطىء الآخر •

فهرس

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ٣٣٩٢/١٩٨٨

ISBN ١٩٧٧ ـ ٠١ ـ ١٧٥١ ـ x